الحجاج بن يوسف الثقفي
بين فتنتين

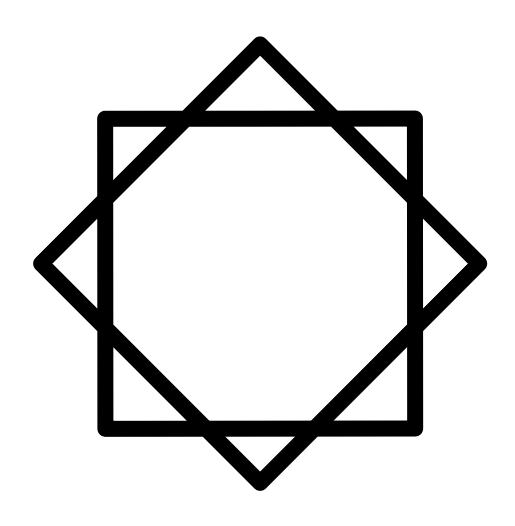
إعداد

روضة سليم و إبراهيم بالحمر

الحجاج بن يوسف الثقفي
بين فتنتين

دعوة لإعادة النظر في شخصية الحجاج

بين تحقيق المنصفين ودعاوى المبطلين



إعداد

روضة سليم و إبراهيم بالحمر

الإهداء

إلى الذين أحبوا النظام وحافظوا على الجماعة ولم ينزعوا يدا من طاعة واستمسكوا بما أمر الله تعالى وما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم من طاعة ولي الأمر ولزوم الجماعة

إلى القادة والأمراء السامعين لولاة أمورهم فيما أمروا فكانوا سببا في تقدم دولهم وارتفاع شأنها وسطوع نجمها

إلى أولئك وعموم المسلمين نهدي هذا الكتاب

إبراهيم بالحمر وروضة سليم


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

يتكون أي مجتمع من المجتمعات من حاكم ورعية , والوظيفة العامة للحاكم هي حمايته لرعيته من المخاطر والأعداء التي تحيق بهم أو تطرأ عليهم وسياسته لهم بالمعروف وتوجيههم نحو ما يعينهم على تنظيم شؤون حياتهم صغيرها وكبيرها , وفي المقابل للحاكم حق على رعيته في طاعتهم له وعدم التشغيب عليه وعدم إتيان أو ارتكاب ما يعطل سير الحياة والنظام وعدم الخروج عليه أو خيانته بالتحالف مع أعدائه أو الدلالة على عورة البلد ومكامن الخطورة فيها للعدو , وفي هذا الأمر تتساوى الأمم كافة مسلمها بكافرها مهما اختلفت تشريعاتها وقوانينها وأنظمتها , لأن الحكم وسياسة الناس لها إطار عام يشترك فيه جميع الأمم مثله مثل مزاولة التجارة والقيام بأعباء الإدارة التي تتطلب دائما مهارات معينة وأساليب وطرق ومنهجيات مدروسة تكون سببا في تفوق التاجر والمدير أيا كان دينه .

وفي الإسلام خصّ الشارعُ لطاعة ولي الأمر أحكام نزل بها الكتاب الكريم وأخبر عنها نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف وقرر علماء المسلمين كافة تفاصيلها في كتبهم وما روي عنهم رحمهم الله تعالى .

وإن تولي أمور المسلمين أمانة عظيمة وحمل ثقيل تنوء به الجبال ولذلك قال الماوردي في كتابه تعجيل النظر وتسهيل الظفر : ((فليس أحدٌ أجدر بالحذر والإشفاق , وأولى بالنَّصَبِ والاجتهاد ممن تقلد أمور الرعية , لأنها أمانة الله التي أمّنه عليها , ورعيته التي استرعاه فيها واستخلفه على أمورها , وهو تعالى ولي السؤال عنها , ولأنه تعالى حسم مواد الاعتراض منها على أفعاله , وكفّ ألسنتها عما رآه في اجتهاده, وأوجب عليها طاعته , وألزمها الانقياد لحكمه , وأمرهم أن يتصرفوا بين أمره ونهيه فقال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ " (النساء – 59) , فالملك خليفة الله في بلاده , ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته [1]

[1] تسهيل الظفر وتعجيل النظر للماوردي / ص 145 و ص151

فالله تبارك وتعالى قد جمع طاعة ولي الأمر مع طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم , قال السعدي في تفسيره للآية ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية .

والأحاديث النبوية التي أمرت بطاعة ولي الأمر كثيرة جدا أوردها ابن كثير في تفسيره للآية السابقة فقال :

عن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة [1]. "

وعن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله . قال : " إلا أن تروا كفرا بواحا ، عندكم فيه من الله برهان "[2] .

وفي الحديث الآخر ، عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة " .[3]

وعن أبي هريرة قال : " أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع ، وإن كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف " . [4]

---

[1] رواه البخاري 7144
[2] رواه البخاري 7055 ومسلم 1709
[3] رواه البخاري 7142
[4] رواه مسلم 1837

وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول : " ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله ، اسمعوا له وأطيعوا " [1]

وقال ابن جرير : حدثني علي بن مسلم الطوسي ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني عبد الله بن محمد بن عروة عن هشام بن عروة ، عن أبي صالح السمان ، عن أبي هريرة ; أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سيليكم بعدي ولاة ، فيليكم البر ببره ، ويليكم الفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلوا وراءهم ، فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساؤوا فلكم وعليهم " [2].

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون " . قالوا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : " أوفوا ببيعة الأول فالأول ، وأعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم " [3] .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر ; فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية " . [4] أخرجاه.

وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من خلع يدا من طاعة ، لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " . [5]

فهذه جملة الأحاديث التي أمرت بطاعة ولي الأمر بالمعروف ونهت عن الخروج عليه ونبهت على ذلك وحذرت منه .

---

[1] رواه مسلم 1838
[2] تنقيح التحقيق لابن الجوزي 2 / 471
[3] سنن ابن ماجه 2338
[4] رواه البخاري 7143
[5] رواه مسلم 1851

وما بين أيديكم من الكتاب يذكر جانبا من ذلك في تاريخنا الإسلامي وفي عهد صدر الإسلام من مفارقة الجماعة وعدم الوفاء بالبيعة لولاة أمور المسلمين , وما نتج عن ذلك من اقتتال دموي بين المسلمين وتفرق للجماعة وتعطل للشرائع والشعائر , وتطاول الأعداء والطمع على ما بين يدي المسلمين من البلاد والثروات .

والكتاب وعنوانه يدرس شخصية أحد أشهر رجال الدولة الأموية على الإطلاق وهو أمير العراقين " أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي " ويبين هذا الكتاب سيرة هذا الأمير في طاعته لولي أمره ولزومه لجماعة المسلمين وتصديه لمحاولات مفارقة الجماعة وتقسيم المسلمين وما بذل في سبيل ذلك من مقاومة المخاطر المحدقة التي أحاطت به خاصة ما حدث بما يعرف من حادثة " فتنة القراء " وهي محاولة عبدالرحمن بن الأشعث خلع عبدالملك بن مروان بعدما نقضوا بيعته والله المستعان .

وفصول الكتاب ثلاثة بدأنا بها بقضية الحجاج بن يوسف الثقفي مع عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما , تلك القضية التي لاكها كل مبغض للأمويين من رواة الشيعة في الكوفة ورواة بيت الحكمة البرمكي بغضا في الحجاج وبغضا في بني أمية حصرا .

وفصل فيما عرف عن فتنة القراء وتلك الرواية المكذوبة التي تشبه مقطعا هوليووديا عن مقتل سعيد بن جبير فجعلوه مظلوما وهو قد نقض بيعة أمير المؤمنين مرتين وخرج عليه ودعا لخلعه وعلى ذلك خاصم وقاتل .

وفصل أخير يتحدث عن الحجاج بشخصه ونسبه وأهله وعلمه وورعه وسياسته وحكمه وفيه رد على من اتهمه بالناصبية أو قال بكفره .

وعليّ هنا أن أسجل مقولة يجب الانتباه لها وهي أن الطرف المبغض للأمويين إنما استغل العاطفة الموضوعة والهالة المرسومة على خصوم الأمويين

فحين تأتي لسيرة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وما حدث في عهده مع الحسين بن علي ستجد الطرف الآخر يعتمد في روايته أن ما حدث إنما حدث في ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ينظر أن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من طاعة ولي الأمر الشرعي ودعا لطاعة نفسه وجمع الأنصار لذلك وكاد أن يؤدي بفرقة المسلمين وتمزقهم وتشرذمهم , فهل تعصمه قرابته من النبي صلى الله عليه وسلم عن الوقوع في الخطأ , وأين هم عن حديث جده صلى الله عليه وسلم حين قال : ((إنَّه سَتَكُونُ هَنَاتٌ وهَنَاتٌ، فمَن أرادَ أنْ يُفَرِّقَ أمْرَ هذِه الأُمَّةِ وهي جَمِيعٌ، فاضْرِبُوهُ بالسَّيْفِ كائِنًا مَن كانَ. وفي روايةٍ: فاقْتُلُوهُ.))[1]

فهذه وصية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما تراه فيها من شدة إنما قصده الحفاظ على الكيان والجماعة من أن تتفرق أو تقتتل فيما بينها أو تتنازع فيتسلط عليها أعداؤها والله المستعان .

وحين تأتي لسيرة الحجاج بن يوسف الثقفي تجد التشنيع عليه لاصطدامه بخصم له هو عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وهكذا استغل خصوم الأمويين وأهل السنة والجماعة من رواة شيعة في الكوفة وأتباع البرامكة والحزبيين والطرقيين في زماننا هذه الروايات ليتهجموا على بني أمية وعلى الحجاج ثم هم أنسفهم يتغنون بفتوحات المسلمين والتي ما وصلت للصين إلا وكان الحجاج هو أميرها ومشرفها وراسم خططها والمحرّض عليها , فيا للعجب .

ولو كان الأمر مع غير الحجاج بن يوسف الثقفي أو يزيد بن معاوية كأبي مسلم الخراساني مثلا أو دعاة العباسيين في خراسان وما فعلوه لرأيتهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

فالقضية هنا ذات بعدين ووجهين يكمل أحدهما الآخر :

- فهي قضية شيعية يستغل فيها الشيعة مقتل الحسين الذي غالوا فيه ليطعنوا في الأمويين

[1] رواه مسلم 1852

- وهي قضية شعوبية يقوم فيها رواة الكوفة من الموالي وحتى تدشينهم لبيت الحكمة البرمكي زمن العباسيين باستغلال تلك الأحداث لوضع الروايات خدمة لأهدافهم الشعوبية وطعنا في الدولة الأموية العربية وإعلاء لرايات ساسان وسواد خراسان

وما فتئ الحزبيون والطرقيون من جماعات مارقة وتجمعات زائغة أن يعودوا ليستخدموا نفس الأدوات الشعوبية الأولى ويستنزلون المظالم السابقة ويلوون أعناقها ويستحضرون من الروايات كل شاذ وغريب ومكذوب لينصروا بدعتهم ويعززوا فكرتهم , قاذفين بها أهل الزيغ والضلال وأصحاب العقول المريضة ممن جعل عقله تربة خصبة لاستقبال تلك البذور الفاسدة .

والعجب كل العجب أن تجد بعض الأمم ما زالت تفتخر بقاداتها رغم أفعالهم الفظيعة وأعمالهم الشنيعة ولن أتكلم هنا عن الروس مثلا وافتخارهم بستالين بل إن ذهبت لمنغوليا كمثال ستجد تمثالا لجنكيز خان للفروسية صنعوه من الفولاذ المقاوم للصدأ , ويزن 250 طن وبطول يقارب الـ 40 م وجعل في أسفله 36 عمودا تمثل سلالة خان ابتداء بجنكيز خان ووصولا إلى ليجدان خان وهو آخر خان حكم المغول وكلفهم قرابة 4.1 مليون دولار وتم إنشاؤه سنة 2008 م . [1]

ولا يقتصر الأمر على منغوليا التي لا يشكل المسلمون سوى 6 % منها [2] , بل إن توجهت لأوزبكستان التي يبلغ نسبة المسلمين فيها إلى 93 % وتحديدا مدينة طشقند لوجدت تمثالا لتيمور لنك المغولي هذا فضلا عن طوابع طبعوها تخليدا لذكراه .

والشيء بالشيء يذكر فما زال اسما تيمور وجنكيز أحد الأسماء الرائجة جدا في دول القوميات التركية " الإسلامية " لا يتورعون عن تسمية أبنائهم به رغم

---

[1] من ويكيبيديا
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D9%85%D8%AB%D8%A7%D9%84_%D8%AC%D9%86%D9%83%D9%8A%D8%B2_%D8%AE%D8%A7%D9%86_%D9%84%D9%84%D9%81%D8%B1%D9%88%D8%B3%D9%8A%D8%A9

[2] https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%86%D8%BA%D9%88%D9%84%D9%8A%D8%A7

إسلامهم , أما إيران فهي صنعت تمثالا لأبي مسلم الخراساني واسمه بهزادانبور وداد هرمزد .

والقصد ليس صناعة تماثيل للحجاج أو غيره بل القصد مفاخرة هؤلاء رغم ثبوت إجرام من تفاخروا به في المسلمين في مقابل تبرأ المسلمين وبغضهم للحجاج بن يوسف الثقفي بسبب وقوعهم في الدعايات الشعوبية وروايات الموالي المكذوبة والمبغضين للأمويين , وسنضع في آخر ملاحق الكتاب صور تماثيل جنكيز خان وتيمور لنك وأبو مسلم الخراساني فقط لتدرك الخلل الذي ركبنا نتيجة الاستسلام للدعاية الكاذبة .

ونختم هذه المقدمة بهذه المقولة لأمير المؤمنين مروان بن محمد رحمه الله آخر خليفة أموي حين قال ((فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة الأعجمية , واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة , ونصحو من هذه السكرة , فرويدا حتى ينضب السيل وتُمحى آية الليل والله مع الصابرين والعاقبة للمتقين)) [1]

فانتبهوا لذلك وتنبهوا ولا تكونوا أُذُنا لكل دعاية أو وشاية وعليكم بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر منكم بالمعروف كما أمركم الله في كتابه وكما أمركم نبيكم في سنته .

والآن نترككم مع فصول الكتاب الذي كان لي شرف المشاركة فيه والعمل عليه والتباحث حول مواضيعه مع روضة سليم بأسلوب سهل العبارة غني الإشارة بعيدا عن التفصيل الطويل والكلام الثقيل وخطابنا فيه لعقول الشباب والنشأ وكذلك كافة الناس ممن يريد كما يقال الزبدة أو يبحث عن الخلاصة والمفيد

ها قد جمعنا ما يكون لجيلنا

سَلِسُ العبارةِ نافذٌ لقلوبِ

[1] جمهرة رسائل العرب في عصور العربية المجلد 2 / ص 486

والقصد منا أن نحصّن أمة

لتعود مشرقةً بدون غروب

وكتب المقدمة : إبراهيم سالم بالحمر

تمهيد :

إن أحداث عصر الدولة الأموية كثيرا ما صورت على غير ما يرضي الحقيقة والعدل ، وطالما حمل عليها وأسيء تقدير رجالها ، وذلك لأنها قامت نتيجة صراع متعدد الأطراف والغايات ، فكان لها منذ نشأتها أعداء كثر ، والذي بقي مستحكما إلى اليوم ، بدليل أن أكثر ما كتب عنها كانت تمليه وتفسده النزعة الطائفية ولاسيما من غلاة الشيعة ومن يحذو حذوهم .

وعلى أن الحجاج بن يوسف الثقفي أحد أهم رجالها ودعاماتها، فلم ينج من افتراءاتهم ومبالغاتهم في القدح والذم ، ولم ينل حقه من الإنصاف وناله ما نال غيره من التشويه والانتقاص ، فكثرت الأساطير التي أحاطت بشخصيته منذ حياته الأولى ومنها ما يرجعه المؤرخون إلى ما قبل ميلاده ، وغاية المراد منها جعله ذلك الكائن الشيطاني المقترن اسمه بكل شر ، وجعل تلك الخرافات براهين للاستدلال على أنه ذلك الآبق المحب لسفك الدماء والجور والفساد , حتى أن البعض أخرجه من حظيرة الإسلام وحكموا عليه بالكفر ورموه بالفجور .

وإننا في ضوء دراستنا التي افردناها عن الحجاج ، سنتجاوز ذكر هذه الأساطير ونترك التعليق عليها إلى ما هو أهم منها ، ألا وهو دراسة القضايا التي تتعلق بسياسة الحجاج ومعاملته مع خصومه على اختلاف فرقهم ومذاهبهم وتحالفاتهم وكانت سببا فيما جنت عليه من النقم والاتهامات .

ولعل أهمها يمكن حصره في المحاور التالية :

- قضية الحجاج و صراعه مع عبدالله بن الزبير، وما كان في عهد ولايته من حصار للحرم وقصف للكعبة .

- قضيته مع ابن الأشعث الكندي الذي أعلن ثورته وخلع طاعة الخليفة، وما كان من ثورة عرب العراق والموالي وفتنة القراء التي قتل على أثرها سعيد بن جبير .

- وقضية مظالمه للناس وما يكون عنها من أسلوب إدارته



الفصل الأول

الحجاج بن يوسف الثقفي وعبدالله بن الزبير

رضي الله عنهما

الفصل الأول

الحجَّاج وابن الزبير

على أن من أعظم ما نقم على الحجاج سفك الدمِ والبطشِ والجبروتِ ، وجلادته في مواجهة معارضه ولا سيما مع ابن الزبير، فلا بد للناقدين والحاقدين أن يتعرضوا لقصة الحجاج معه وينقمون عليه حصاره والتضييق عليه وعلى أتباعه في الحرم ، ويحتجون بتلك الحادثة في كل مناسبة للتذكير ببطش الحجاج وظلمه .

وهنا يغلب الظن أن ما استهواهم هي منزلة ابن الزبير الدينية كونه رحمه الله أول مولود في الإسلام بعد الهجرة وابن بنت أبي بكر ، يضاف إلى ما قيل عنه من كثرة تعبده ، فتأثروا بهذا ونظروا إلى أفعال الحجاج وجند الشام ، ولم ينظروا إلى الظروف والدواعي التي دعت إلى تلك الأفعال من جهة أخرى ، فاستكبروا على ابن الزبير أن تكون عليه تبعة في حوادث وألقوا بلائمتها على الحجاج وجنده ، وبرءوا ابن الزبير وحزبه من تبعات تصرفه رحمه الله .

ولو أنهم ناقشوا الأمر في ضوء غير هذا ونظروا بحياد وموضوعية غير متأثرين بما تأثروا به وربطوا الحوادث بظروفها، لتبين لهم الصواب ولعلموا أنه يقاسمهم تبعات هذا النزاع ، وكذلك عليه من عواقب المسؤولية عن مواقفه وتصرفاته وما آلت إليه ، إذ إن لكل من الأطراف المتنازعة حينها أسبابه وغايته التي يراها باجتهاده وفيما يدين به حقا .

وقضية الحجاج رحمه الله وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما معروفة ومشهورة، إلا أن غالب تلك الروايات التي نقلت أحداث ذلك الصراع المرير متمثلا بحزب عبدالله بن الزبير وبين الدولة الأموية وأنصارها ومؤيدوها ، وباقي الفئات والأطراف الأخرى التي سنأتي على ذكرها لاحقا , تم نقلها بتحيز وميول واضح لحزب ابن الزبير وتقريع وقدح لمناوئيه من الأمويين وغيرهم ، فركزوا على أخطاءهم، وذموا اعتداءاتهم ، وألقوا عليهم باللائمة وأظهروهم أولئك المعتدين على حقه بالخلافة والمفسدين بالأرض؛ وفي ذات الوقت كان في نظرهم صاحب الحق، و اللائذ المسالم , إذ غضوا الطرف عما بدر منه رحمه الله من أعمال تستوجب الرد من خصومه السياسيين .

وعلى أننا نحاول إعادة الرواية من جهة نظر موضوعية محايدة بدون انحياز أو تعصب؛ سنفرد مساحة للتعرف عن كثب على شخصية عبد الله ابن الزبير ودوره في إدارة الصراع مع الدولة الأموية - كون مرحلة تولي الحجاج لزمام الأمر وما وقع في عهده إنما هي استمرار ومكمل لما بين يديها في هذا النزاع - ، ونلقي نظرة على أسلوبه وتحالفاته وموقفه من معارضيه وموقف الصحابة رضي الله عنهم في سياسته .

توطئة لمنشأ الصراع بين ابن الزبير والأمويين :

وهنا لزاما علينا أن ننوه إلى الوضع العام وإلى حالة الانقسام التي كانت تسود الأمة الإسلامية مع بداية تولي الخليفة عبد الملك بن مروان ، والتي استدعت لظروفها وتآمر أطرافها إلى حذوه سياسة الشدة والصرامة ، وتولية الحجاج المشهور بهما .

فبعد وفاة مروان بن الحكم سيد بني أُميّة وشيخ قريش ومؤسس دولة بني مروان سنة 65هـ ، أسندت الخلافة وتمت البيعة لابنه عبد الملك أرشد أولاده ، وكان على عاتقه مسؤولية مواصلة الجهد لإكمال هذا البناء الذي وضع أساسه الخليفة السابق حتى يصير صرحا شامخا ,

إلا أن حالة الانقسام والتحارب بين احزاب الدولة وما سادها من الفتن

والاضطرابات كانت عائقا أمام إتمام هذا البناء ، فكان عليه المواجهة والتجلد المعارضين بالسيف والمال والسياسة ، وكان لا مناص بعد من التصارع مع الطامحين للسلطة والحكم والملك بعد لمن غلب .

فإلى جانب دولته التي كانت تضم الشام والأردن ولاحقا مصر بعد انتزاعها من ابن الزبير ، كانت هناك دولة ابن الزبير ذلك الخصم العنيد وصاحب الشخصية الكبيرة ذات التاريخ المجيد والجهاد المذكور .

كيف لا وهو أحد أبطال الإسلام ، وله صلات قرابة بالنبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر والسيدة خديجة ، وأبوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كبار الصحابة ورجال الشورى .

وإلى جانب الزبير كان فريق آخر من الأمة وهم الخوارج الذين أعلنوا الثورة على هذه الأوضاع كلها إلا أن نقمتهم على بني أُميّة كانت أشد ، وكان أن أقام جمع منهم دولته في الاهواز في إقليم فارس (الأزارقة) ، وأقامت جماعة أخرى دولة ثانية في جزيرة في اليمامة والبحرين وحضرموت (النجدات) .

وهناك أيضا رجال الشيعة بالكوفة وغيرها الذين كان غضبهم منصب على الأمويين بالذات لأنهم في نظرهم هم من اغتصب الخلافة من آل البيت وأساءوا إليهم وقتلوا كبار أئمتهم، فكانوا يتأهبون وينظمون صفوفهم استعدادا للقيام بثورة وتكوين دولتهم .

وعليه فلم تكن الدولة موحدة ومنقسمة إلى أجزاء وفرق متباينة من حيث الولاءات والتحالفات :

- فدولة ابن الزبير في الحجاز
- وبني أمية في الشام ومصر
- ودولة الخوارج (الأهواز – اليمامة)
- ودولة الشيعة بالكوفة

وبالعودة لبني أمية ، بعد وفاة أمير المؤمنين يزيد وخلافة ابنه معاوية الثاني الذي تنازل عن الحكم واعتزل سنة 64هـ تاركا فراغا في السلطة ، نشأ على أثره التنازع بين مراكز القوى في الدولة الاسلامية على منصب الخلافة بين المختار بن ابي عبيد الثقفي في العراق وعبد الله بن الزبير في الحجاز ومروان بن الحكم الاموي في الشام .

وقد رجحت كفة الصراع فيه لصالح مروان بن الحكم أمام ابن الزبير الذي آزرته القبائل القيسية ، فبعد أن أنهى ابن الزبير المختار الثقفي في العراق وضم اليه العراق حدث الصدام بين بني مروان وابن الزبير بعد ان هزمت القبائل اليمنية القبائل القيسية في الشام واعلنت مروان بن الحكم خليفة بعد معركة مرج راهط سنة 64هـ التي انكسرت فيها القيسية ووقعت فيها مذبحة فظيعة لتتطور بعدها الأحداث بإعلان مروان بن الحكم خليفة و تجدد الحكم الاموي ثانية من خلال الاسرة المروانية الأموية .

وبينما تقف هذه الأسرة من بني أمية وحدها في آتون هذا الصراع ، ويقف الباقون موحدين في هدف محاربتها ، والقضاء عليها ، ومع حاجتها الماسة لشخص كفؤ يقوم بهذا العبء , لفت الحجاجُ قائد الشرطة أنظار الخليفة عبد الملك بن مروان ، ورأى فيه شدة وحزما وقدرة وكفاءة تخوله لينهي الصراع الدائر بينه وبين عبد الله بن الزبير الذي كان قد أعلن نفسه خليفة سنة 64هـ بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، ودانت له بالولاء معظم أنحاء العالم الإسلامي ، فانتزع العراق من أخيه معصب بن الزبير , ثم جهز عبد الملك حملة بقيادة الحجاج , للقضاء على دولته تماما .

وكان أن وقعت عدة مواقع بين جيش الشام وجند ابن الزبير وظل يجلدهم طويلا هو وحلفاءه والحرب بينهم سجال إلى أن تم لعبد الملك الأمر في العراق وتفرغ لجبهته ومقاتلته في الحجاز، فكان ما كان من حصاره ومقتله رحمه الله .

امتناع ابن الزبير عن مبايعة يزيد بن معاوية واستعصامه في الحرم :

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما كتب يزيد إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان يخبره بموت الخليفة ، ويأمره في كتابه أن يأخذ كل من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذا شديدا إنفاذا لوصية أبيه .

فأما عبدالله بن عمر فلم يكن في المدينة حين ورد نعي معاوية ، وإنما كان هو وابن عباس بمكة ، فلقيهما وهما مقبلان منها الحسين وابن الزبير، فقال : ما وراءكما ؟
قالا : موت معاوية والبيعة ليزيد بن معاوية.
فقال لهما ابن عمر: اتقيا الله ولا تفرقا بين جماعة المسلمين، وقدم ابن عمر وابن عباس إلى المدينة .

وفي رواية جاءت في كتاب الأغاني أن عبدالله ابن الزبير وسّط صفية زوجة عبدالله بن عمر لدى زوجها حتى يبايعه – أي يبايع ابن الزبير – فقال ابن عمر لزوجته لما أكثرت الكلام في ابن الزبير وأنه إنما انشق على بني أمية غضبا لله ورسوله وللمهاجرين : " أما رأيت بغلات معاوية الشهب التي كان يحجُّ عليهنّ , فإن ابن الزبير ما يريد غيرهنّ [1]

فلما جاءت البيعة من الأمصار تقدم إلى الوليد وبايع مع الناس، فكان رحمه الله رجل يحب العافية، ولم يكن يميل إلى القتال ولا يحب أن يولى على الناس إلا أن يدفع إليه هذا الأمر عفوا , وكان قد امتنع أن يبايع لعلي أو معاوية حال خلافهما ، ثم بايع لمعاوية لما اصطلح مع الحسن بن علي واجتمع عليه الناس وبايع لابنه يزيد بعد موت معاوية لاجتماع الناس عليه، ثم امتنع من المبايعة لأحد حال الاختلاف إلى أن قتل ابن الزبير ، وانتظم الملك كله لعبد الملك، فبايع له حينئذ ، فهذا معنى قوله : "والله ما كنت لأعطي بيعتي في فرقة ولا أمنعها من جماعة " لما اجتمع الناس على عبد الملك

---

[1] الأغاني للأصفهاني ج1 / ص12

وقد سئل وهو بالحجاز تحت ولاية ابن الزبير : ما يمنعك أن تبايع لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين؟ فقال: "والله ما كنت لأعطي بيعتي في فرقة، ولا أمنعها من جماعة "[1]

وفي ذلك قال سفيان الثوري " نأخذ بقول عمر في الجماعة ونأخذ بقول ابنه في الفرقة " [2]

وأما الحسين وعبدالله بن الزبير، لما دعاهما الوليد في ساعة لم يكن يجلس فيها للناس، صرفا رسوله واستنتجا أن معاوية قد مات وأن الوليد إنما يدعوهما للبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر، وذهب الحسين إلى الوليد فأقرأه الوليد كتاب يزيد ودعاه إلى البيعة ، فأبى أن يعطي بيعته سرا، واقترح أن يخرج ويدعو الناس إلى البيعة ويدعوه إليها معهم .

ولما بعث الوليد إلى ابن الزبير جعل يتلكأ حتى خرج من المدينة ليلا، فبعث الوليد إلى الحسين فاستمهل الرسل حتى الصباح، ثم خرج من المدينة في الليل بعد ابن الزبير بليلة وتبعه إلى مكة سنة 60 هـ. [3]

ومع خروج الحسين من مأمنه في مكة إلى أهل الكوفة بعد أن استرضوه وألحوا بالكتب والرسل في أن يقدم إليهم ويتقبل بيعتهم، وما كان من إرسال ابن عمه ومقتله بعد أن تراجع عنه أصحابه .

قرت عين ابن الزبير بخروجه، لأنه كان منافسا أعظم منه مكانة وقدرا عند الناس، وهو الذي شجعه على المسير إلى الكوفة، ويظهر ذلك من موقفه من خروجه وما دار بينهما من حديث قبيل رحيله ، حين قال له ابن الزبير : " ما أدري ما تركنا لهؤلاء القوم ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم، أخبرني ما تريد أن تصنع ؟
فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلىّ شيعتي بها وأشرافها بالقدوم عليهم، وأستخير الله .
فقال ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها.

---

[1] سنن البيهقي 8 / 334
[2] السنة للخلال رقم 98
[3] تاريخ الطبري ج2 / ص223

فلما خرج من عنده، قال الحسين: قد علم ابن الزبير أنه ليس له من الأمر معي شيء، وأن الناس لم يعدلوا بي غيري، فود أني خرجت لتخلو له " [1]

و هذا بالفعل ما كان من أمره، فقد استغل حادثة مقتل الحسين للتشنيع على أهل الكوفة وعلى حكومة بني أمية وللتعريض بيزيد ، وكان حينها يبايع الناس سرا على الرغم من مطالبة أصحابه له بإعلان خلافته ، وخاصة بعد مقتل الحسين ، وعدم وجود منازع ، إلا أنه لم يرضها إلا سرا , أما علانية فكان يظهر انه لائذ عائذ بالبيت الحرام إلى أن أظهر الأمر لنفسه بعدما كان من وقعة الحرة وموت يزيد رحمه الله .

وقعة الحرة :

بعدما كان من مقتل الحسين وإصرار ابن الزبير على الامتناع عن البيعة ليزيد، وفشل سياسة المراحل والأخذ باللين والمداراة التي اتبعها يزيد مع أهل المدينة متمثلة ببعثه رسوله النعمانَ بن البشير في مهماته المتلاحقة لإقناع القوم بالتراجع عن مخططاتهم في الثورة ضده ، ودعوتهم وابن الزبير للأخذ بالبيعة وتذكيرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، ,الذي حذرهم الفتنة ورغبهم في بيعة يزيد وحذرهم من جند الشام , لكن أحدا من الناس لم يستمع لمقالته ، واستطال أهل المدينة على يزيد ، وحاسنهم فخاشنوه ، وأحرجوه حتى أخرجوه ، فاضطر إلى تغيير سياسته من اللين إلى العنف وأجبر على تجاوز الوصية التي أوصاه بها معاوية " بأن يكرم أهل مكة وأهل المدينة لأنهم أصله ومنصبه " .
وجدير بالذكر أن هذه السياسة قد فرضت على يزيد فرضا لأنه لم يستطع أن يخضع أهل المدينة بالحلم والمداراة لأن الظروف قد تغيرت ، فأسس طريقة جديدة قوامها عنف الدولة وتجبرها مع أهل المدينة ، بقوة السلاح ، وتهدد بمعاقبة أهل المدينة على عصيانهم له شر عقاب ، لكن أهل المدينة رفضوا الانصياع للخليفة وابتدأت الفتنة .

---
[1] البداية والنهاية لابن كثير ج8 / ص172

ومع بداية عام 63هـ ، وثب الثوار على عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل المدينة من قبل يزيد بن معاوية فأخرجوه وطردوا بني أمية ومواليهم ومن والاهم من قريش وكانوا يعدون قرابة 1000 شخص ، وكما حاصروا دار مروان بن الحكم حيث نزل الأمويين وهتفوا بخلع يزيد .

فكتب وجماعة من الأمويين كتابا إلى يزيد يطلبون الغوث , ولما خبره رسولهم بخبر حصار الثوار لهم تمثل ببيت شعر :

لقد بدلوا الحلم الذي من سجيتي
فبدلتُ قومي غلطة بليان [1]

وقد فهم يزيد أن لب الصراع بينه وبين أعداءه هو الحكم والسلطة، فبادر من منطلق رجل الدولة إلى القضاء على الثورات بقوة الجيش الشامي وباستعمال القهر المميز للدولة ، وإنما أراد بذلك تركيز الطاعة والجماعة وتركيز الدين واسترجاع حرمة الحرم الذي انتهكه ابن الزبير وفرض حقه كخليفة يبايعه كل الناس .

فعين الخليفة مسلم بن عقبة المري على قيادة جيش الشام لما عرف عنه من شجاعته ووفاءه ، وامتثالا لوصية أبيه معاوية في الاعتماد عليه لما جرب عنه من خدمته وتفانيه، وانتدب معه 12 ألف جنديا وأمرهم بالمسير إلى الحجاز ، واعطوا أعطيتهم كاملة، وتحصل كل منهم على 100 دينار، وكانت مهمتهم متمثلة بالقضاء على ثورة أهل المدينة وفرض سلطة الدولة فيها، وإنقاذ بني أمية المحاصرين بدار مروان بن الحكم، ومن ثم الالتحاق بمكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وكان يزيد مغتاظا من التعتيم عليه من قبل ابن الزبير، وما ناله من التعريض به من قبله، فكان إرسال هذا الجيش لمعاقبة ابن الزبير والقضاء عليه قضاء تاما .

وهنا لابد من التنبيه إلى نقطة وهي أن ثورة أهل المدينة رغم تعاطفها معه كانت مستقلة عن ابن الزبير ولها أهدافها الخاصة بها .

فأرسل يزيد أولا جيشا من الشام إلى المدينة المنورة لإخضاعها ومحاربة من خلع خلافته، ومن ثمّ توجّه هذا الجيش إلى مكة المكرمة، حيث ابن الزبير، ووقع بعد ما كان من وقعة الحرة التي قتل فيها رؤساء الثورة في المدينة، وفي الطريق إلى مكة

---

[1] الطبري مجلد 4 / ص370

توفي قائد الجيش الشامي واستخلف الحصين بن نمير السكوني لقيادة الحملة، فقدم مكة في أوائل سنة 64 هـ، فحاصرها وطلب من ابن الزبير الاستسلام، فأبى وتحصن في الحرم .

ولما وصل نعي يزيد بن معاوية لجيش الشام، نمى ذلك إلى الحصين بن نمير ومن معه من الجيش من أهل الشام.. فهادنوا ابن الزبير ونزلوا مكة فلقي الحصين ابنَ الزبير في المسجد، فقال له : هل لك يا ابن الزبير أن أحملك إلى الشام وأبايع لك بالخلافة ؟ فقال عبد الله بن الزبير رافعا صوته : أبعد قتل أهل الحرة، لا والله حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام، فقال الحصين : من زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحمق، أكلمك سرا، وتكلمني علانية، أدعوك أن أستخلفك فترفع، وتزعم أنك تقاتلنا ، فستعلم أينا المقتول، وانصرف أهل الشام إلى بلادهم مع الحصين [1]

وقد بين الحصين بن نمير حسن نيته بدعوته عبد الله بن الزبير للذهاب معه إلى الشام لبيعته مما يدل على أنهم لا يحاربون إلا لطاعة، فلما انتفت بموت يزيد عرضوا الطاعة على ابن الزبير الذي طالب بالخلافة ،وقد بايعه قبل ذلك بعض أهل المدينة ومكة لصحبته وقرشيته وهو ابن الزبير ، وليس حبا لجاه أو لسلطة أو لعصبية شامية أو أموية أو تشفيا من أحد كما يظن الظانون .

وأما ما روي عما نزل بأهل المدينة من القتل والنهب والرق والسبي، وغير ذلك مما عنه أعرضنا كما قال المسعودي في مروج الذهب، فلا تخلو من المبالغة والكذب في توصيفها، وليس أدل على كذبها وما حوته من افتراءات من أن ناقلها المسعودي لا يسند الرواية بل يقطع بها .

وواقع الأمر أنه لم يكن هناك نهب ولا رق، ولا سبي في وقعة الحرة , بل هو اقتتال بين طائفتين من المسلمين رأوا ما رأوه، وفيهم عدد من الصحابة والتابعين كثير .

ولقد ذكر المسعودي أنه أعرض عن إيراد بعض الأخبار ليشكك القارئ ويضعه مع الساخط على أهل الشام ومن ورائهم يزيد لأن لسانه لم يستطع وصف موبقاتهم، وهذا إيحاء خبيث وقد حقق غرضه مع الأسف والمسعودي شيعي زيدي .[2]

---

[1] تاريخ الطبري ج2 / ص430 - 432

[2] تاريخ الطبري ج2 / ص423

أما عن موقف الصحابي ابن عمر رضي الله عنهما وهو المعروف بحرصه على اتباع منهج النبيِّ صلى الله عليه وسلم والاقتداء بسنته من بيعة يزيد بن معاوية ، فقد حذر الفتنة ولم يشارك أهل المدينة في ثورتهم وفي خلعهم لأمير المؤمنين ، فقد جاء عبدَ الله بن مطيع في مجلسه وهو أحد رؤوس الثورة في المدينة وذكره بلزوم الطاعةِ والجماعة وحذره من مغبة مفارقة الجماعة والخروج على أمير المؤمنين، وقد روى مسلم في صحيحه أنه
"جَاءَ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ إلى عبدِ اللهِ بنِ مُطِيعٍ حِينَ كانَ مِن أَمْرِ الحَرَّةِ ما كَانَ، زَمَنَ يَزِيدَ بنِ مُعَاوِيَةَ، فَقالَ: اطْرَحُوا لأَبِي عبدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً، فَقالَ: إنِّي لَمْ آتِكَ لأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُهُ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: مَن خَلَعَ يَدًا مِن طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَومَ القِيَامَةِ لا حُجَّةَ له، وَمَن مَاتَ وَليسَ في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً."
قال الحافظ أبو القاسم التيمي الطلحي الأصبهاني في كتابه الحجر في بيان المحجة : فصل في ذكر يزيد بن معاوية وحاله.. حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع : لما خلع أهل المدينة يزيدا، جمع ابن عمر حشمه وولده، وقال :" إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، وإنا بايعنا هذا الرجل، على بيعة الله ورسوله، وأني لا أعلم غدرا، أهم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني والله لا أعلم أحدا منكم خلعه، ولا تابع في هذا الأمر، إلا كانت الفيصل بيني وبينه."
قال : رواه الإمام أحمد بن حنبل، بنحوه عن عبد الصمد، عن صخر بن جويرية. وفي البخاري، في كتابه الفتن، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، كلاهما عن نافع مولى ابن عمر.

استطراد حول آراء العلماء في بيعة يزيد بن معاوية

ذكر الشيخ زين الدين بن رجب الحنبلي، في ذيل طبقات الحنابلة ، من فتاوى الحافظ عبد الغني بن سرور القدسي، فيما نقله من خط الغيث ابن المجد : أنه سئل عن يزيد بن معاوية ،فأجاب : خلافته صحيحة. وقال بعض العلماء : بايعه ستون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم، ابن عمر. وأما محبته ،فمن أحبه فلا ينكر عليهم ومن لا يحبه ، فلا يلزمه ذلك لأنه ليس من الصحابة الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلزم محبتهم إكراما لصحبتهم ،وليس ثم أمر يمتاز به عن غيره من الخلفاء التابعين كعبدالملك وبنيه ؛ إنما يمنع من التعرض للوقوع

فيه خوفا من التسلق إلى أبيه وسكا لباب الفتنة
وذكر ابن رجب أيضا، في ترجمة الشيخ عبد المغيث بن زهير الحربي المحدث، عن ابن القطيعي . أن عبد المغيث ، حدث بينه وبين ابن الجوزي نفرة. كان يطعن على يزيد بن معاوية، وكان عبد المغيث يمنع من سبه.
وصنف في ذلك كتابا واسمعه. وصنف الآخر كتابا أسماه الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد. قال : وقراته عليه..
قال ابن رجب: قلت هذه المسألة وقع بينهما بسببها فتنة، ويقال أن عبد المغيث تبع أبا الحسن البنا، فإنه قيل أنه صنف في منع ذم يزيد ولعنه، وابن الجوزي صنف في جواز ذلك

وعلى هذا فمن بايع يزيد بن معاوية بالخلافة هم 60 صحابيا وهم إجماع الصحابة بينما لم يرفض بيعته من الصحابة إلا اثنين هما الحسين بن علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير ونقل هذا ابن حزم في رسائله والذهبي في سير أعلام النبلاء

وأشهر من بايع يزيد من الصحابة هم :
1 - عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما
2 - عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما
3 - عبدالله بن عباس رضي الله عنهما
فهؤلاء ثلاثة أرباع العبادلة الأربعة رضي الله عنهم لأن ابن مسعود رضي الله عنه توفي في عام 32 للهجرة
4 - النعمان بن بشير رضي الله عنه
5 - أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبي صلى الله عليه وسلم
6 - عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما
7 - مروان بن الحكم رضي الله عنه

8 – أسيد بن عمرو بن سيار (أسيد بن جابر) يُكنى بأبي سليط بن أبي خارجة الأنصاري الخزرجي النجاري من بني عدي بن النجار

9 – الضحاك بن قيس الفهري

10 – سعيد بن العاص

11 – عبدالله بن عامر بن كريز

12 – ثور السلمي

13 – أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس بن سليم

14 – عبدالله الفزاري

15 – عبدالرحمن بن أبي عقيل الثقفي

16 – حسان بن مالك الكلبي

17 – محمد بن مسلمة الأنصاري

18 – عمرو بن سعيد بن العاص وهو من السابقين في الإسلام وهاجر الهجرتين

19 – يزيد بن المقفع

20 - سلمة بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم وولد أم المؤمنين أم سلمة

وبالجملة فهم 60 صحابيا أحصاهم أهل العلم كزين الدين ابن رجب الحنبلي وابن طولون الحنفي الصالحي في قيد الشريد

وولي يزيد بن معاوية رحمه الله الخلافة عام 60 للهجرة وهؤلاء الستون صحابيا هم من تبقى من الصحابة لأن أصغرهم في سنة تولي يزيد كان عمره حتما قد تجاوز 65 سنة لأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي عام 11 للهجرة وعليه يلزم من الصحبة رؤيته صلى الله عليه وسلم والإيمان به وعدم الارتداد عن الدين بعد موته صلى الله عليه وسلم .

تحالفات ابن الزبير:

بعد موت يزيد بن معاوية سنة 64هـ، ومرض ابنه معاوية ورفضه للخلافة ، وفي خضم نزاعات الأمويين فيما بينهم من أجل العرش ، أظهر ابن الزبير الدعوة لنفسه وبايعت معظم الأمة الإسلامية له بالخلافة ، ونشط في فتح باب التحالفات على مصراعيه آملا بذلك أن يجتذب خصومه المحاربين إلى صفه طمعا في كسب

تأييدهم ونصرتهم، وبدأ يجيش الأعوان والأجماع من معارضي الأمويين من قريش والأنصار ، وحاول الاتصال مع أرباب الدعوات والثورات ممن تلاقت مصالحهم سوية في عداءهم للأمويين بهدف التحالف معهم، فانضم لحلفه كل الساخطين على الأمويين , من أمثال الخوارج ، والمختار بن أبي عبيد الثقفي ، كما وسعى لتقريب حزب التوابين للاستفادة من موقفهم المعادي للأمويين، إلا أن فشل في استقطابهم لحزبه , وكذلك الأحباش الذين أرسلهم النجاشي للدفاع عن الكعبة فآزروه وعاضدوه لتثبيت ملكه وتوطيد حكمه ، وقد ساعده بذلك استعصامه في الحرم، ومعارضته للخليفة يزيد ليجمع حوله تأييد الناس ودعمهم له خارج مكة .

أولا : تحالفه مع الخوارج :

بادر خوارج اليمامة (النجدات) تحت إمرة نجدة بن عامر إلى ابن الزبير للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام .

أما الأزارقة ، وكانوا أشد أعداء جيش الأمويين الذي تصدى دوماً لتخريبهم وعدوانهم ، وأذاقهم الأمرّين بسبب ذلك . فكان أول خروجهم في 404 رجل ، وذلك في خلافة يزيد الأول، وقد قربهم ابن الزبير طمعا في كسب تأييدهم وحبا في توطيد سلطانه وتمكينا لسيادته ودعوته تجاه الأمويين؛ والغريب أنه أظهر أنه على مبادئهم وآرائهم وأعطاهم من غير توقف ولا تفتيش ، فوفدوا عليه ولحقوا به وانتصروا له ، وكانوا ركنا متينا من أركان جيشه وقاتلوا في صفوفه واستماتوا في الدفاع عن البيت الحرام ، وبعد أن قاتل الطرفان عدوّهما المشترك ، بدأ الخوارج يتساءلون إن كان ابن الزبير فعلاً على مذهبهم ويتبنى أفكارَهم ، فامتحنوه بعثمان بن عفان والصحابة ، رضي الله عنهم ، لِيعرفوا رأيه بهم ، ويحدّدوا بناءً على إجاباته خطوتهم القادمة ، إن كانت الاستمرار في مناصرته ومبايعته أو الانفضاض عنه .

إلا أنه لما توفي يزيد وتزحزح كابوس الأمويين عن ابن الزبير أخذ يناقشهم في مبادئهم ، وتراجع عن تأييده لآرائهم وأخذ يجرب أن يجرهم إلى حظيرة الجماعة

الإسلامية , حتى أنه صرح مرة لما جادلهم في عثمان بقوله : " فعثمان أميرُ المؤمنين كصاحبيه، وأنا وليّ وليّه، وعدوّ عدوّه، وأبي وصاحبُه صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله يقول يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة : "سبقته إلى الجنة"، وقال: أوجب طلحة . [1]

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم انصرفوا عنه وفارَقوه وقصدوا بلاد العراق وخراسان ، فتفرقوا فيها بأبدانهم، وأديانهم، ومذاهبهم، ومسالكهم المختلفة المنتشرة، التي لا تنضبط ولا تنحصر، لأنها مفرعة على الجهل وقوة النفوس، والاعتقاد الفاسد .

ثانيًا: تحالفه مع المختار بن أبي عبيد الثقفي :

وكان رجلا طموحا ومتعطشا للسلطة ولو على أكتاف الفتن ، فكان أول أمره أحد المبايعين لمسلم بن عقيل حين مقدمه للكوفة ؛ وحبسه ابن زياد لذلك ، ثم توسط له ختنه عبدالله بن عمر، فأطلق سراحه ، فسار إلى ابن الزبير الذي أراد أن ينتصر به ، فرحب به وأوسع له، وغمره بإحسانه وعطفه ،فاشترى منه دينه على شروط حددها المختار وهي :

- أنه يبايع ابن الزبير على أن لا يقضي الأمور بدونه
- وأن يكون الوزير الأول في دولته، فلا يأذن لأحد قبله ويوليه على أحسن أعماله .

فأظهر ابن الزبير قبول شروطه وشهد معه حصار الحصين بن نمير، وأبلى المختار البلاء الحسن في أعداءه ، وخدم رئيسه خدمة صادقة ، إلا أن ابن الزبير لم يقض له شروطه ولم يفِ له بالعهود التي قطعها على نفسه ، فلم يستعمله ، وجعل يقدم عليه من هم دونه منزلة وكفاءة ، ويبدو أن المختار تألم ألما شديدا منه ، فأقام يستطلع أخبار الكوفة ، ويتزود بالمعلومات منها، وحينما علم أن الفتنة برقت فيها ورعدت لم يقصر عن استغلالها لإرضاء طموحه بالسلطة والحكم ، إلى أن انتهز فرصة قيام حزب التوابين، فرحل إليها وجعل يدس الدسائس بين أعضاء هذا الحزب حتى انشعبت إليه فرقة تؤيده وتعظمه وتبث دعوته وهو ما أثار استياء ابن الزبير وغضبه عليه لخيانته واستقلاله بالعراق وأذربيجان ، وبطش أخوه بأتباعه

[1] البداية والنهاية لابن كثير ج11 / ص667 – 668
تاريخ الدولة الأموية وولهوزن / ص82 - 83

وبطش هو بزوجته وقطع رأسها ، وقد قتل مصعب جماعة من المختارية وأسر منهم خمسمائة أسير ، فضربت أعناقهم عن آخرهم في يوم واحد ، وقد قتل من أصحاب مصعب في الوقعة محمد بن الأشعث بن قيس .

روى إسحاق بن سعيد ، عن أبيه قال : جاء مصعب بن الزبير يزور ابن عمر ، فقال : أي عم اسألك عن قوم خلعوا الطاعة ، وقاتلوا حتى إذا غلبوا ، تحصنوا ، وطلبوا الأمان ، فأعطوا ، ثم قتلوا . قال : كم العدد ؟ قال : خمسة آلاف ، فسبح ابن عمر ، ثم قال : يا مصعب لو أن امرأً أتى ماشية الزبير ، فذبح منها خمسة آلاف شاة في غداة أكنت تعده مسرفا ؟ قال : نعم ، قال : فتراه إسرافا في البهائم . وقتلت من وحد الله . أما كان فيهم مكره أو جاهل ترجى توبته ، اصبب يا ابن أخي من الماء البارد ما استطعت في دنياك [1].

ثالثا : حزب التوابين

وهم فئة شيعية قامت على إثر مقتل الحسين ، رأت أنه لا يغسل عارهم ولا يمحي ذلهم لخذلانهم حسينا إلا بإعدامهم قَتَلَتَه ، فأسسوا حزب التوَّابين ،وترأسهم سليمان بن أبي صرد، وأخذت تناوئ بني أمية وتسعى في إعدام كل من اشترك في التدبير لابن بنت رسول الله ، وتنشر الدعوة سياسة الشدة التي اتبعها عبيد الله بن زياد ، وقد رغب ابن الزبير في الاستفادة من تلك الحركة محاولا إقناع زعماءها في الانضمام إليه ومساندته ، وقد حاول أنصار ابن الزبير أن يؤكدوا للتوابين أن الأمويين أعداء لكلا الطرفين على السواء وعرضوا عليهم المساعدات المالية ، إلا أن التوابين كانوا يعتقدون أن القتال مع ابن الزبير ضلال في ضلال وقد قالها زعيمهم سليمان بن صرد " ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا ، وإن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله ، وإن أصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا , إنا لنا شكلا ولابن الزبير شكلا" [2] ، فما أعاروهم أذنا صاغية ولا قلبا واعيا لأن دعوتهم معينة مفهومة لا تتجاوز طلب الثأر للحسين وإرجاع الإمامة لأهلها من العلويين، وأبوا أن يقاتلوا في صفوفه لئلا يكونوا سلما يرقى به لمطاَمعه وآلة هينة لينة يديرها كيفما شاء، ولتباين أهدافهم عن طموحاته .

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي مجلد 5 / ص217

[2] تاريخ الطبري ج2 / ص501

وعلى أية حال استفاد ابن الزبير من هذه الحركة واستعان بأكابر الرجال على تشجيعها سرا وعلانية حتى يشغل الأمويين في الساحة العراقية ،فينال بذلك فرصة تثبيت مركزه وتقوية جيشه .

موقف بني هاشم بشقيه العباسي والطالبي من يزيد بن معاوية :

لم يقع بين يزيد و بين بني هاشم ما يعكر العلاقة و القرابة بينهما سوى خروج الحسين و بعض أهله ومقتلهم على يد أهل العراق بكربلاء، و مع هذا فقد بقيت العلاقة الحسنة بينهم ، و كانوا أولاد عمومته ، حتى أنك تراهم قد اجتنبوا الخروج عليه أيام الحرة وحصار مكة ، بل كانت صلته بعلي بن الحسين و عبد الله بن العباس و محمد بن الحنفية أيام الحرة جيدة .
أما عبد الله بن جعفر فقد كانت صلته بمعاوية و يزيد من بعده غاية في المودة و الصداقة والولاء و كان يزيد لا يرد لابن جعفر طلباً و كانت عطاياه له تتوارد فيقوم ابن جعفر بتوزيعها على أهل المدينة ، و كان عبد الله بن جعفر يقول في يزيد " أتلومونني على حسن الرأي في هذا " [1]

أما ما كان من موقف محمد بن الحنفية من يزيد وابن الزبير:

فيروي البلاذري أن محمد بن علي بن أبي طالب - المعروف بابن الحنفية - دخل يوماً على يزيد بن معاوية بدمشق ليودعه بعد أن قضى عنده فترة من الوقت ، فقال له يزيد ،
و كان له مكرماً : يا أبا القاسم ، إن كنت رأيت مني خُلُقاً تنكره نَزَعت عنه ، و أتيت الذي تُشير به علي ؟ فقال : والله لو رأيت منكراً ما وسعني إلاّ أن أنهاك عنه ،

[1] قيد الشريد في أخبر يزيد , ابن طولون الصالحي , 35

وأخبرك بالحق لله فيه ، لما أخذ الله على أهل العلم عن أن يبينوه للناس ولا يكتموه ، وما رأيت منك إلاّ خيراً .[1]

وقد دافع عن يزيد وانكر على عبد الله بن مطيع أحد رؤوس الثورة في المدينة اتهاماته، وكان قد شهد ليزيد بالفضل والصلاح، والشهامة والاستقامة، وملازمة السنة وسؤال أهل العلم، والمواظبة عن الصلاة، ودافع عنه عندما كان عبد الله بن مطيع داعية ابن الزبير يحرض الناس في المدينة على خلع إمامهم يزيد بن معاوية وينسب إليه ما ليس فيه، ومن ذلك زعمه أن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب .
فقال له محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية: " ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده ، فرأيته مواظباً على الصلاة ، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه ملازماً للسنة " قالوا له: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك، فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع ؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه ، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا الحق وإن لم نكن رأيناه فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة فقال: (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ولست من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك؟ فنحن نوليك أمرنا قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال جيئوني بمثل أبي أقاتل على مثل ما قاتل عليه، فقالوا: فمر ابنيك أبا القاسم، والقاسم، بالقتال معنا، قال: سبحان الله. آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه ؟ إذن ما نصحت لله في عباده، قالوا: إذن نكرهك، قال: إذن آمر الناس بتقوى الله وألا يرضوا المخلوق بمعصية الخالق، وخرج إلى مكة[2]

أما عبد الله بن عباس فقد شهد ليزيد بن معاوية بالعلم والحلم والوقار ، حين وفد على أمير المؤمنين معاوية بعد وفاة الحسن بن علي فدخل على ابن عباس وجلس منه مجلس المعزي فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس : (إذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس) [3] . وبنو حرب هم أبناء أبي سفيان صخر بن حرب .
وهذه شهادة من زعم البعض أنه أُخذت منه البيعة بالسيف

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ج5 / ص17
البداية والنهاية لابن كثير ج8 / ص233
[2] البداية والنهاية لابن كثير ج8 / ص238
[3] البداية والنهاية لابن كثير ج8 / ص258

سياسة ابن الزبير وأسلوب إدارته للصراع مع خصومه :

على الرغم مما تمتع به ابن الزبير في ذاته من صفات تبعث على الاحترام ، ومع شهرته بشخصيته القوية وماضيه المجيد ، إذ كان من فرسان قريش ، خطيبا بليغا وعابدا لا يبارى في تحمله مشقات العبادة ، وله مكانته بين المسلمين الذين لم يجدوا خيرًا منه لتولي هذا المنصب الجليل .

غير أن هذه الملكات وإن كانت أسعفته في بادئ الأمر، لم تكن وحدها كفيلة بحسم الصراع لصالحه ، فعلى الرغم من مبايعة معظم العالم الإسلامي له ، إلا أنه كان يفتقد أشياء لا تعيبه ولا تعيب خلقه ، ولكنها كانت من ضرورات عصره ، كاستمالة الناس وحشد الأتباع والأعوان ، وبذل الأموال والإغداق عليهم جذبًا لهم ، وإشاعة للفرقة وشق الصفوف بين الخصوم ، وضعف صلاته بأنصاره , الأمر الذي لم يغفله خصومه ونجحوا فيه ، وعجز هو عن مجاراتهم ، فكانت الغلبة في الصراع لمن أعمل السياسة واستغل الدهاء في اصطناع الرجال الذي لعب دور لا ينكر في حسم المعارك لصالحه وهذا ما كان

- فلم يكن ابن الزبير من حيث أسلوبه وسياسته يتمتع بالحنكة والدبلوماسية ويصدق عليه ما وصف به من أنه كان لَحِز لجوج وضعيف الدبلوماسية وظهر ذلك جليا في موقفه الرافض لدعوة قائد جيش الشام الحصين بن النمير حين عرض عليه الذهاب معه للشام ومبايعته للخلافة ، ولو أنه قبل بهذا العرض لربما تم له الأمر دون معارضة، لأن بني أمية اضطرب أمرهم بعد موت يزيد من معاوية ورفض ابنه معاوية بن يزيد تولي الأمر، ثم لم يلبث أن توفي هو الآخر بعد أبيه مباشرة .

فكان أن أضاع بذلك فرصة ضم الشام إلى دولته وتولي خلافة المسلمين ولمّ شمل الأمة بسوء تقديره وتعنته في بعض شروطه .[1]

- ومما يؤخذ على سياسته أنه قيد نفسه بمكة ، وظل ملازما لها ولم يخرج ابدا طوال المدة التي ناضل فيها من أجل الخلافة ، فلم يخرج إلى أي جزء آخر من أجزاء دولته ، خاصة العراق فكانت الصلة بينه وبين الناس بعيدة , ولم توجد تلك الرابطة التي تستلزم الولاء بين الجمهور وزعيمه ، أو بين جيش وقائده وهي رابطة الحب وشعور الإعجاب التي تنشأ عن الاتصال الشخصي وتأثير القائد او الزعيم في أتباعه .

وقد لحظ عبد الملك بن مروان نفسه هذا المعنى، فتحدث فيما بعد في خطبة له في الكوفة، بعد أن قدم العراق، فقال: "إن عبدالله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج وآسى أنصاره بنفسه، ولم يغرز ذنبه بالحرم" , ولكن هكذا أراد ابن الزبير أن يغرز ذنبه في الحرم , وترك أنصاره وحدهم بعيدا عنه ، دون أن يضرب لهم القدوة أو الأسوة بنفسه ، وترك الأمور تجري دون أن يحكمها ، ولم يكن وكلاؤه ولا حتى إخوته بكافين عنه ، فكان هذا بلا شك من أسباب هزيمته وفشل أمره .

في المقابل كان عبدالملك حسن المعاملة لقواده وحاشيته , يكرمهم ويحلم عليهم ، ويزورهم إذا مرضوا ، ويحضرهم مجالسه كأصدقاء .

أما من ناحية الخروج بنفسه ، فإنه قد قرر في المرحلة الثانية من النشاط ، أن ينهض بنفسه ، ويخرج على رأس قواته فيشترك في الحصار والحرب والمفاوضة ، وهكذا فعل ولم يغرز ذنبه في دمشق أو غيرها ، فكان هذا من أكبر عوامل نجاحه وانتصاره ، في حين كان ابن الزبير بعيدا عما يعالجه انصاره من حروب ومعارك .

وقد شهد له عبدالله بن العباس

---

[1] طبقات ابن سعد مجلد 2 / ص67 - 68

فعن عبدالله بن أبي مليكة قال غدَوْتُ علَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلتُ : أتُرِيدُ أنْ تُقَاتِلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَتُحِلَّ حَرَمَ اللَّهِ؟! فقالَ: مَعاذَ اللَّهِ! إنَّ اللَّهَ كَتَبَ ابْنَ الزُّبَيْرِ وبَنِي أُمَيَّةَ مُحِلِّينَ، وإنِّي واللَّهِ لا أُحِلُّهُ أبَدًا. قالَ: قالَ النَّاسُ: بَايِعْ لِابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقُلتُ: وأَيْنَ بهذا الأمْرِ عنْه؟ أمَّا أبُوهُ: فَحَوَارِيُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -يُرِيدُ الزُّبَيْرَ- وأَمَّا جَدُّهُ: فَصَاحِبُ الغَارِ -يُرِيدُ أبَا بَكْرٍ- وأُمُّهُ: فَذَاتُ النِّطَاقِ -يُرِيدُ أسْمَاءَ- وأَمَّا خَالَتُهُ: فَأُمُّ المُؤْمِنِينَ -يُرِيدُ عَائِشَةَ- وأَمَّا عَمَّتُهُ: فَزَوْجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -يُرِيدُ خَدِيجَةَ- وأَمَّا عَمَّةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فَجَدَّتُهُ -يُرِيدُ صَفِيَّةَ- ثُمَّ عَفِيفٌ في الإسْلَامِ، قَارِئٌ لِلْقُرْآنِ، واللَّهِ إنْ وصَلُونِي وصَلُونِي مِن قَرِيبٍ، وإنْ رَبُّونِي رَبُّونِي أكْفَاءٌ كِرَامٌ، فَآثَرَ التُّوَيْتَاتِ والأُسَامَاتِ والْحُمَيْدَاتِ -يُرِيدُ أبْطُنًا مِن بَنِي أسَدٍ: بَنِي تُوَيْتٍ، وبَنِي أُسَامَةَ، وبَنِي أسَدٍ- إنَّ ابْنَ أبِي العَاصِ بَرَزَ يَمْشِي القُدَمِيَّةَ -يَعْنِي عَبْدَ المَلِكِ بنَ مَرْوَانَ- وإنَّه لَوَّى ذَنَبَهُ، يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ.[1]

والقُدَمِيَّةَ : هي التقدمة في الشرف والفضل، كناية على ظهور مراد عبد الملك بمعالي الأمور

ولوى ذنبه : كناية عن تأخره وتخلفه و عن معالي الأمور

- وقد أساء ابن الزبير التقدير عندما فكر في استغلال حرمة الكعبة وقداستها ، وأراد أن يستفيد من مكانتها في قلوب الناس لكسب تأييدهم له ومناصرتهم إياه ، فكانت الخوارج قد أتته ، وأهل الأهواء كلهم ، وقالوا: عائذ الله ، وكان شعاره " لا حكم إلا لله " ، فلم يزل على ذلك بمكة ، ولم يدع بذلك للأمويين من خيار إلا حصاره وتضييق الخناق عليه في تلك البقعة الشريفة التي تحصن بها ولو أنه خرج لملاقاة أهل الشام خارج الحرم لما كان من حادثة الحرق والقصف ، وكفى البيت الحرام أذاهم وأذاه

في هذا يقول ابن عباس في حديثه مع ابن أبي مليكة لما سأله : أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل حرم الله؟ فقال : معاذ الله إن الله كتب ابن الزبير وبني أمية محلين وإني والله لا أحله أبدا .

[1] صحيح البخاري رقم / 4665

وأما عن موقف عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما من استعصام عبد الله بن الزبير في الحرم ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم ، ثنا إسحاق بن سعيد ، ثنا سعيد بن عمرو قال : أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير وهو في الحجر جالس فقال : يا ابن الزبير ، إياك والإلحاد في حرم الله ، فإني أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: " يحلها وتحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها " فانظر أن لا تكونَ هو يا ابنَ عَمرٍو؛ فإنَّكَ قد قرَأْتَ الكُتبَ، وصحِبْتَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: فإنِّي أُشهِدُكَ أنَّ هذا وَجهي إلى الشَّأمِ مُجاهِدًا.

فلَمَّا سَمِعَ ابنُ الزُّبَيرِ ذلك قال لابنِ عَمرٍو مُحَذِّرًا: "فانظُرْ ألَّا تَكونَ هو يا ابنَ عَمرٍو؛ فإنَّكَ قد قَرأتَ الكُتُبَ" [1]

ولَعَلَّه أي ابن الزبير يَقصِدُ ما كان ابنُ عَمرٍو اطَّلَعَ عليه مِن كُتُبِ أهلِ الكِتابِ "وصَحِبتَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ" فكانت صُحبَتُكَ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَيرًا مِنَ اطِّلاعِكَ على كُتُبِ غَيرِ المُسلِمينَ، ولَعَلَّه يُعرِّضُ بأنَّ ذلك يَكونُ إلحادًا وظُلْمًا وَقَعَ مِن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ في حَرَمِ اللهِ، "قال عَبدُ اللهِ بنُ عَمرِو بنِ العاصِ: فإنِّي أُشهِدُكَ أنَّ هذا وَجهي إلى الشامِ مُجاهِدًا" فأتَوَجَّهُ إلى الشَّامِ، حيثُ الثُّغورُ مع الرُّومِ؛ لِيَخرُجَ مِنَ الحَرَمِ؛ حتى لا يَقَعَ منه ما حَذَّرَ منه ابنَ الزُّبَيرِ، ويُجاهِدَ في سَبيلِ اللهِ ضِدَّ أعداءِ الإسلامِ .

- بطشه بأعدائه وشدته في خصومته ويتمثل ذلك في انتقامه من المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي خانه وتولى عنه إلى الكوفة، واستقبل بالعراق أذربيجان ، فلما علم مكره به وتآمره عليه ، غضب عليه ، وندب لحربه أخاه مصعبا ، الذي التقى بجيش المختار ، وحصرهم في دار الإمارة ، فكان المختار يبرز في فرسانه ، ويقاتل حتى قتله طريف الحنفي وأخوه طراف في رمضان سنة سبع وستين ، وأتيا برأسه مصعبا ، فوهبهما ثلاثين ألفا ، وقتل من الفريقين سبعمائة .

[1] الراوي : عبدالله بن عمرو | المحدث : شعيب الأرناؤوط | المصدر : تخريج المسند لشعيب | الصفحة أو الرقم : 7043 | خلاصة حكم المحدث : رجاله ثقات رجال الشيخين | التخريج : أخرجه أحمد (7043) واللفظ له، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (220/28) مختصراً

كذلك وقد بطش ابن الزبير باتباع المختار في الكوفة ، وبطش عبد الله بن الزبير بزوجته التي قطع راسها وبطش بأهل العراق حتى قال ابن عمر لمصعب " : لو كانوا خراف من حر مالك ما فعلت بهم هذا " وفي رواية " والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا " [1]

وقيل : كان المختار في عشرين ألفا , ثم إن مصعبا أساء ، فأمن بقصر الإمارة خلقا ، ثم قتلهم غدرا ، وذبحت عمرة بنت النعمان بن بشير صبرا , لأنها شهدت أن زوجها المختار عبد صالح , وأقبل في نجدة مصعب المهلب بن أبي صفرة في الرجال والأموال ، ولما خذل المختار قال لصاحبه : ما من الموت بد ، وحبذا مصارع الكرام . وقل عليه القوت في الحصار والماء ، وجاعوا في القصر ، فبرز المختار للموت في تسعة عشر مقاتلا .

فقال المختار : أتؤمنوني ؟ قالوا : لا ، إلا على الحكم ، قال : لا أحكم في نفسي . وقاتل حتى قتل ، وأمكن أهل القصر من أنفسهم ، فبعث إليهم عباد بن حصين ، فكان يخرجهم مكتفين ، ويقتلهم . فقال رجل لمصعب بن الزبير : الحمد لله الذي ابتلانا بالأسر ، وابتلاك أن تعفو ، وهما منزلتان إحداهما رضى الله والأخرى سخطه ، من عفا ، عفا الله عنه ، ومن قتل ، لم يأمن القصاص ، نحن أهل قبلتكم وعلى ملتكم ، لسنا تركا ولا ديلما ، قاتلنا إخواننا كما اقتتل أهل الشام بينهم ، ثم اصطلحوا ، وقد ملكتم فأسجحوا ، فرق مصعب ، وهم أن يدعهم ، فوثب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وقال : اخترنا أو اخترهم ، وقال آخر : قتل أبي في خمسمائة من همدان وتخليهم ؟ ! . وسمرت كف المختار إلى جانب المسجد.

● حرصه على المال وبخله على أصحابه

لما كان المال أداة قوة في يد الرجال وعاملا مهما في تثبيت سلطانهم وتوطيد مكانتهم ، فلم يكن ابن الزبير ليستغل هذا السلاح لصالحه لكسب الأعوان وحشد الأنصار ، إنما كان يبغي الملك والسلطان دونما بذل وسرف ، وقد أخذ عليه من معاصريه حرصه وضنه بالأموال ، حتى لأتباعه ومناصريه ما أدى إلى حتمية هزيمته لنفور الناس منه والانصراف عنه ، ومن أمثلة ذلك الخبر الوارد بأن أخاه

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير ج12 / ص59

مصعب بعدما قتل أصحاب المختار ، الذين بلغوا ثمانية آلاف صبرا ، قدم حاجا في سنة إحدى وسبعين، وأقبل على أخيه عبد الله بن الزبير، ومعه رؤساء أهل العراق ووجوههم وأشرافهم فقال : ((يا أمير المؤمنين : قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع في قومه ، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، ونابذوا أهل معصيتك ، وسعوا في قطع عدوك ، فأعطهم من هذا المال ، فقال له عبد الله بن الزبير جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال والله لا أفعل ، وأيم الله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم : عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام . قال: فقال رجل منهم : علقناك وعلقت أهل الشام ، ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده ، لا يرجون رفده ، ولا يطمعون فيما عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا[1]

ومن ذلك أيضا حرصه على تخزين الأموال والتحرز من إخراج الأقوات في أيام حصار مكة وما تبعه من مجاعة أكلت أهل مكة، فكانت خزائنه مكدسة بالأقوات والأموال ، ولكنه مع ذلك لم يخرج منها من الغلال والذرة والتمر إلا ما يسد الرمق ، وكان يقول في ذلك " إن أنفس أصحابي قوية ما لم يفن هذا " [2]

وهذا ما دعاهم إلى الخروج وطلب الأمان من جيش أهل الشام طمعا بالعطاء الذي كان يمنحه الحجاج لمن يخرج إليه .

أما عبد الملك خصم ابن الزبير وغريمه في الملك ، فقد تفطن برجاحة عقله وصلابة رأيه لهذا المعنى فكان الأقدر على ضبط زمام أمره ، واتبع سياسة إغداق الأموال في جلب الأنصار ، فقال في إحدى خطبه : " ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا " [3]

---

[1] الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ج2 / ص20
[2] الكامل في التاريخ لابن الأثير ج4 / ص352
[3] الكامل في التاريخ لابن الأثير ج4 / ص520

ولم يكن الوحيد الذي سجل على ابن الزبير هذا المثلب ، فقد كان لعلي بن زيد فيه رأيا مشابها فقال : ((كان عبدالله طويل الصلاة ، كثير الصيام ، وكانت فيه خلال مباينة لمّا حاول من الخلافة بخل وضيق ولجاج)) [1]

ولمّا آلت الأمور في العراق لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب بن الزبير ، كان الحجاز لا زال تحت إمرة عبد الله بن الزبير إذ اعتصم به وسمي العائذ بالبيت ، والتمس في أرض الحرمين معقلا ولم يرد الخروج منه بحال .

فسير عبد الملك بن مروان جيشا بقيادة الحجاج واليه على العراق لمحاصرته في مكة ، إذ كان لا بد له من إزالة عقبته لأمان سلطته ودولته .

وخرج جيشه من العراق باتجاه الحجاز طاعة لولي أمره وإخلاصا منه لدولة بني أمية ووفاء وسعيا منه إلى تثبيت عرشهم من خلال قتال الخارجين على هذا العرش .

خرج الحجاج على رأس جيش لا يبلغ أكثر من ثلاث آلاف من المقاتلين عبر بهم الصحراء ونزل في الطائف التي كانت آنذاك مقام ابن الحنفية وغيره من كبار الصحابة وأبناء عمومة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبناء العباس ممن أخرجهم عبدالله بن الزبير، فتلجؤوا إلى الطائف خوفا على أنفسهم بعد أن حاول ابن الزبير إحراقهم لامتناعهم عن البيعة له بالخلافة ، وعسكر فيها واتخذ منها مركزا لقيادة عملياته راصدا الموقف ومفضلا أول نزوله انتظار تطور الأحداث ، إذ لم يرد أن يدفع بالجيش لمهاجمة بيت الله الحرام دون أن يكون لذلك مبرر من ناحية ابن الزبير، لأنه وانطلاقا من حكمة سياسية كانت تمليها ظروف مكة ومكانتها الدينية ، كان يدرك أن هجوم جيشه على مكة المكرمة وتهديد بيت الله الحرام لن يكون بالأمر الهين مالم يعد له عدته ويهيئ النفوس لقبوله والانخراط بما هو مقبل عليه ، فحاول جهده أن يأخذ على ابن الزبير بشعاب مكة وفجاجها وأن يطيل حصاره حتى يهلك أو يخرج منها مخلوعا ، وأن لا يجعل من الحرم ميدان حربهم ، إلا أن

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ج6 / ص351

الظروف ألجأته على ألا يعمل وفق هذه السياسية ، فلم يحد عنها إلا كارها مضطرا .

ثم بعد ذلك أخذ الحجاج يسير منها السرايا الراكبة إلى عرفات وكانت تلتقي ببعض رجال ابن الزبير فتصطدم معهم سبرا لغورهم والتماسا لمعرفة مدى قوتهم ، ولما طالت المناوشات بين الفريقين وكانت الكفة على الدوام راجحة للحجاج ، وتبين له ضعف خصمه وفي الوقت الذي كان ابن الزبير يحاول أن يستجيش أتباعه ويجمع إليه أنصاره وتؤوب إليه فلوله ، كتب إلى الخليفة يعلمه وينبئه من أمر الزبير وتفرق أصحابه عنه وفرار الكثيرين من جيشه ، يسأله أن يمده بالمال والرجال ، وأن يأذن له في دخول الحرم للقضاء على ابن الزبير ، وكان الهدف من إطالة الحصار مطاولته وخروج المزيد من رجاله إليهم .

فأمده بطارق بن عمرو وكان واليا على المدينة التي آلت إلى عبد الملك بن مروان حيث أوفد طارق بن عمرو لمحاربة عمال الزبير على المنطقة الواقعة بين أيلة ووادي القرى ، فلما انتصر عليهم ، دخل المدينة وكان ذلك أثناء إقامة الحجاج في الطائف ، فسار طارق في خمسة آلاف وأذن للحجاج في الحصار .

وقد تفرد البلاذري في إحدى روايتيه أن عبد الملك هو الذي كتب للحجاج بذلك ، ويعلله أن ابن الزبير بعد مقتل مصعب كتب إلى أهل العراق يدعوهم إلى طاعته ومعاونته ، وأن خبر ذلك ورد إلى عبد الملك من أخيه بشر بن مروان بالعراق ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج " أن سر إلى ابن الزبير فانزل معه وأشغله "، ولعل هذا كان سببا في تغير موقف عبد الملك من الامتناع عن مهاجمة ابن الزبير في مكة اول الأمر، وإعطاء الأمر للحجاج بالسير إليه .

فخرج بجيشه من الطائف متجها نحو مكة في غرة ذي القعدة من سنة 72 هـ ، وأرسل فرقة من جيشه نصبت منجنيقا على جبل أبي قبيس وقعيقعان المجاور لمنزل جيش ابن عمرو ، وكان هدفه كما روي الزيادة التي زادها ابن الزبير على الكعبة، وكانت هذي الزيادة من الناحية الشمالية مما يجعل رميها من كل من جبلي أبي قبيس وقعيقعان أمرا ميسورا دون أن تتعرض الكعبة لبقايا أحجار المنجنيق إن احكمت الرماية .

وسواءً أرمى الحجاج الكعبة نفسها أم الزيادة التي زادها عبدالله بن الزبير فقد كان يعمل مضطرا مكرها، ذلك أن بعض أعوان ابن الزبير صعد فوق الكعبة وصار يوجه الضربات إلى جيش الحجاج مما اضطره أن يوجه الضربات لهم ولا حيلة له في ذلك ، وكان أن توسط بعض أعيان مكة لدى الحجاج طالبين منه أن يكف عن استخدام المنجنيق إذ كانت وفود الحج قد جاءت مكة وقد منعهم من الطواف ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق .

ولما كان ذلك تعطيل لركن من أركان الحج، فقد تدخل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فكتب إلى الحجاج يقول : " اتق الله فإنك في شهر حرام وفي بلد حرام وقد قَدِمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا" فأجابهم .
وأرسل إلى طارق بن عمرو أن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج وقال لهم : " والله إني لكاره لما ترون ولكن ما أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت "

استمر نطاق الحصار مضروبا على ابن الزبير والتراشق بين الطرفين مستمرا ومن شدة وطأة الحصار على أهل مكة حدثت مجاعة شديدة خرج على أثرها الكثيرون من أهل مكة إلى الحجاج بعد أن بعث إليهم بالأمان الذي أعطاه عبد الملك لهم ولابن الزبير حتى قيل أنه خرج إليه عشرة آلاف منهم ابنا عبد الله بن الزبير حمزة وخبيب .

وكان ابن الزبير يرجو أن يقنع أهل مكة بالكفاف حتى تنجلي غمة الحصار ويخرج من الحرب منتصرا .

وكما كان يخشى إن فنيت أقواته أن يهرع رجاله إلى معسكر الحجاج وقد حدث ما كان يخشاه إذ فر هؤلاء إلى معسكر كان فيه الحجاج يغمر الناس بعطاياه وكانت المؤونة فيه موفورة تحمل إليه من الشام والعراق ، على عكس ما كان عليه أهل مكة من ضنك في المعيشة وقلة في الارزاق ، ما تسبب في خروج الآلاف من أهل مكة الى معسكر الحجاج وبعد خروج الآلاف من أهل مكة إلى الحجاج لم يبقى مع ابن الزبير إلا عدد قليل ما بين متحمس له ومتورط معه ، فلما رأى ابن الزبير ذلك ، جمعهم للتفكير في الموقف ، فقال: ما ترون ، فقال رجل من بني مخزوم: والله لقد

قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت وإنما هي احدى خصلتين : إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ، وإما أن تأذن لنا فنخرج ، وفي هذه المقالة ما يدل على مدى اليأس الذي تسرب إلى قلوب أصحابه ، وفيه إنذار بأن لا رجاء في القتال ، وقال له رجل آخر اكتب لعبد الملك بن مروان، فقال كيف أكتب؟؟ من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان فوالله لا يقبل هذا أبدا ، أم أكتب لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلي من ذلك، وفي هذا دليل قاطع على أن ابن الزبير كان يأبى أن يسلم على أية صورة ، وقال له رجل ثالث بل نطلب الصلح ، فقال ابن الزبير وأي صلح هذا ؟ فوالله لو وجدوكم في جوف الكعبة لقتلوكم .

وكان ابن الزبير في حالة عصبية إذ حدث أن حاول أخوه عروة أن يقنعه بالكتابة إلى عبد الملك بن مروان قائلا إن الله قد جعل لك أسوة في الحسن بن علي ، إذ خلع نفسه وبايع معاوية ، فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير، وقد كان جالسا معه عليه ، و في حيرة من عبد الله بن الزبير بين استبساله وخذلان الأكثرية من أنصاره دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، ودار بينهما الحديث المشهور .

وعلى الجهة الأخرى كان الحجاج يخطب الناس مبينا لهم ما صارت إليه حال ابن الزبير، وما هو فيه فقويت نفوسهم فتقدموا فملؤوا ما بين الحجون إلى الأبواء .

ورتب الحجاج جنده وكان من حسن رأيه أن جعل أهل كل جهة من جهات الشام على باب من أبواب الحرم بذاته حتى لا تحدث فتنة وحتى تتحدد المسؤولية ، وبينما كان ذلك يجري خارج أبواب الحرم كان ابن الزبير ينصح البقية الباقية من أصحابه ويرتبهم .

ثم بدأ المحاصرون في مهاجمة ابن الزبير داخل الحرم فمرة يحمل في هذه الناحية، وأخرى في هذه الناحية، فلما رأى الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير ترجل وأقبل يسوق الناس حتى لا يتقهقروا .

وفي إحدى الحملات قتل صاحب علم ابن الزبير عند باب بني شيبه فصار العلم بأيدي أصحاب الحجاج، فاستشاط ابن الزبير غضبا ، ثم حمل على جماعة من الرجال حتى أخرجهم من المسجد وتابعهم حتى بلغ بهم الحجون، فرماه رجل بآجرة أصابت وجهه فارتعش لها، ودمي وجهه فتعاور عليه رجال الحجاج فقتلوه وقطعوا رأسه ، وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم إلى المدينة فنصبت بها، ثم ارسلت الى عبد الملك بن مروان، على العوائد المعروفة أما جثته فصلبت على الثانية اليمنى وكان ذلك في يوم الثلاثاء 17 من جمادى الاولى من سنه 73 للهجرة .

وبإخماد حركة ابن الزبير ومقتله تم لعبد الملك أمر الحجاز وانتهت آخر محاولة حاولها معارضوه لانتزاعه من أيدي الأمويين .

اما عن الحوار الذي دار بين الحجاج وأم الزبير اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما فقد كثرت فيه الروايات وتباينت في تفاصيلها، ما بين مقل ومكثر فيها . وسنورد فيما يلي بعضها لبيان وجه الاختلاف بينها <

1 - في مسند الإمام الأحمد حديث رقم: 26974

روى عن هارون بن عنترة ، عن أبيه ، قال : لما قتل الحجاج ابن الزبير وصلبه منكوسا ، فبينا هو على المنبر، إذ جاءت أسماء ، ومعها أمة تقودها، وقد ذهب بصرها ، فقالت: أين أميرك م؟ فذكر قصة، فقالت: كذبت، ولكني أحدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يخرج من ثقيف كذابان ، الآخر منهما شر من الأول، وهو مبير

مرفوعه صحيح لكن بلفظ : " إن في ثقيف كذابا ومبيرا " ، وهذا إسناد فيه هارون بن عنترة ، وفيه كلام، وقد انفرد بسياق هذه القصة ، فذكر أن ابن الزبير صلب منكوسا، وأن أسماء هي التي دخلت على الحجاج .

والصحيح أن ابن الزبير صلب، ولكن لم يتابعه أحد على قوله : " منكوسا "، وأن الحجاج هو الذي دخل على أسماء .

2 - كما روي في المستدرك على الصحيحين الحديث 8648

حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني ، ثنا إبراهيم بن عبد الله السعدي ، ثنا روح بن عبادة ، ثنا عوف ، ثنا أبو الصديق ، قال : لما ظفر الحجاج على ابن الزبير فقتله ومثل به ، ثم دخل على أم عبد الله وهي أسماء بنت أبي بكر ، فقالت : كيف تستأذن علي وقد قتلت ابني ؟ فقال : إن ابنك ألحد في حرم الله ، فقتلته ملحدا عاصيا حتى أذاقه الله عذابا أليما ، وفعل به وفعل ، فقالت : كذبت يا عدو الله وعدو المسلمين ، والله لقد قتلته صواما قواما برا بوالديه ، حافظا لهذا الدين ، ولئن أفسدت عليه دنياه لقد أفسد عليك آخرتك ، ولقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " أنه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما أشر من الأول ، وهو المبير " ، وما هو إلا أنت يا حجاج .

أخبرناه الشيخ أبو بكر بن إسحاق ، أنبأ محمد بن غالب ، ثنا أبو عمرو الحوضي [ص: 835] وعمرو بن مرزوق ، قالا : ثنا شعبة ، عن حصين ، فذكر الحديث بنحوه ، وزاد فيه ، فقال الحجاج : صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصدقت أنا المبير أبير المنافقين.
هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

3 - وروى ابن عساكر
في ترجمة الحجاج: أنه لما قتل ابن الزبير ارتجت مكة بكاء على عبد الله بن الزبير رحمه الله، فخطب الحجاج الناس فقال :
أيها الناس! إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم فأذاقه من عذابه الأليم ، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة وهي أشرف من مكة ، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نهي عنها أخرجه الله من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

وقيل : إنه قال : يا أهل مكة إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير، فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع الخلافة أهلها، فخلع طاعة الله وألحد في حرم الله ، ولو كانت مكة شيئا يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء , فلما عصاه أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، وإن ابن الزبير غَيَّرَ كتاب الله .
فقال له عبد الله بن عمر: لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت، والله إن ابن الزبير لم يغير كتاب الله، بل كان قواما به صواما، عاملا بالحق .

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك بما وقع، وبعث برأس ابن الزبير مع رأس عبد الله بن صفوان، وعمارة بن حزم إلى عبد الملك، ثم أمرهم إذا مروا بالمدينة أن ينصبوا الرؤوس بها، ثم يسيروا بها إلى الشام، ففعلوا ما أمرهم به وأرسل بالرؤوس مع رجل من الأزد فأعطاه عبد الملك خمسمائة دينار، ثم دعا بمقراض فأخذ من ناصيته ونواصي أولاده فرحا بمقتل ابن الزبير عليهم من الله ما يستحقون .

ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصلبت على ثنية كدا عند الحجون ، يقال: منكسة ، فما زالت مصلوبة ، حتى مر به عبد الله بن عمر فقال: رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صواما قواما.
ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأنزل عن الجذع ودفن هناك.
ودخل الحجاج إلى مكة فأخذ البيعة من أهلها إلى عبد الملك بن مروان ، ولم يزل الحجاج مقيما بمكة حتى أقام للناس الحج عامه هذا أيضا وهو على مكة واليمامة واليمن .

قصف الكعبة :

فيما يخص روايات قصف الكعبة وبيان صحيحها من باطلها فالواجب ان ننوه أن حصل حصارين لابن الزبير وأصحابه في مكة والحرم ،الأول في عهد يزيد بن معاوية وكان على أهل الشام الحصين بن نمير ،وأما الثاني في عهد عبدالملك بن

مروان وكان على جيشه الحجاج بن يوسف الثقفي..

الحصار الأول

كان بعد أن بعث يزيد بن معاوية ابن عضاة الأشعري إلى ابن الزبير ليدعوه لبيعته الله رفض ابن الزبير أن يبايعه أو يدخل في طاعته ، وفي رواية أخرى رجالها مجهولون أن الخليفة يزيد أرسل ناسا آخرين إلى عبد الله بن الزبير يدعوانه إلى البيعة له " على ولاية الحجاز وما شاء وما أحب لأهل بيته من الولاية له " فأجابهم ابن الزبير بأنه لا يبايع رجلا كذا وذكر مثالبه .

وحين سار الحصين بن نمير بجيشه صوب مكة ، فانتهى إليها لأربع بقين من المحرم ، ولاذ عبد الله بن الزبير بالمسجد الحرام ، ونصب في جيشه الفساطيط والخيام [1]

وتتحدث روايات ليست بالقوية أن الحصين بن نمير حاصر ابن الزبير مرتين ، وخرج ابن الزبير في أهل مكة ومن التف معه من أهل الحرة والخوارج وفيهم نجدة بن عامر ، فاقتتلوا قتالا شديدا وحمل أهل الشام على أهل مكة حملة قوية ، فانكشف أهل مكة ، وقتل طائفة من جماعة ابن الزبير، وبقي ابن الزبير يصابرهم حتى جاء الليل ، فانصرف أهل الشام ،ثم حمل أهل الشام الحملة الثانية على أهل مكة ، ويبدو أنهم في هذه المرة داخل الحرم بقية محرم وصفر كله

وهناك رواية أخرى ليست بأقوى من السابقة، تفيد بأن الحصار لم يكن إلا مرة واحدة ، وأنه دام من دخول جيش الشام مكة لأربع بقين من محرم ، واستمر الحصار لمستهل ربيع الآخر .

وتتضارب الروايات وتتعدد فيمن أحرق البيت ، وفي اليوم الذي فيه أحرق البيت فيه ، قد اشتعلت النار حقيقة، فاحترقت وانصدع الركن الأسود .

أما رواية عوانة بأن أهل الشام هم من قذف البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار والنفط ومشتقات الكتان فاحترق البيت وانهدم ، فليست بالرواية الصحيحة ، فالبيت الذي

[1] الأزرقي في أخبار مكة

يستدل استتند إليه ليس فيه ذكر للنار، بل هو حسب ديوان الحماسة متعلق بمسألة أخرى، وهي حصار مكة في عهد الحجاج , ففي أثناء الحصار الثاني ضرب أهل الشام الكعبة ، لكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة ، وعلى هذا فالظاهر أن الأمر قد اختلط على عوانة، وربما لا يكون هذا الاختلاط بريئا من الغرض [1]

أما أبو مخنف عند (الطبري) فيقول : أُحرِقَ البيتُ على البناء للمجهول ولا يذكر الفاعل [2]

ويقول الواقدي أن الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير، أخذ قبسا في رأس رمحه ، فطيرت الريح به فضرب أستار الكعبة [3]

وأما المدائني في الأغاني فيذكر أن ابن الزبير نفسه كان هو ذلك الشخص التعس الذي وقع منه ذلك فيحكي أنه لما حصره أهل الشام ، سمع اصواتا في الليل فوق الجبل ، فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا إليه ، وكانت ليلة ذات رياح شديدة صعبة وبرق ورعد ، فرفع فأسا على رأس رمح لينظر إلى الفأس فأطارتها الريح ووقعت على أستار الكعبة فأحرقتها واستطالت، فيها، وجهد الناس في إطفاءها فلم يقدروا ، وأصبحت الكعبة تتهافت [4]

وقد دام الحصار إلى أن بلغ أهل الشام نعي يزيد وقد كانت وفاته في الرابع عشر من ربيع الأول سنة 64 هـ , وقد وصل النعي إلى مكة إلى مكة في الثلاثاء هلال ربيع الآخر أي بعد حرق الكعبة بسبعة الله عشرين يوم

وأما في تاريخ خليفة بن خياط عن عبد الملك بن جريح
وفيه إعضال لأن وفاته كانت سنة 150 هـ ، يقول: أن ابن الزبير اتخذ المسجد

[1] تاريخ الطبري ج2 / ص424
[2] تاريخ الطبري ج2 / ص528
[3] تاريخ الطبري ج5 / ص498
[4] المدائني الأغاني ج3 / ص84

حصنا، فكانت فيه الفساطيط والخيام، فحرق رجل من أهل الشام باب بني جمح ، ففشي الحريق حتى أخذ في باب الكعبة واحترقت [1]

وهناك روايات أصح إسنادا من تلك تبين لنا أن السبب كان من أصحاب ابن الزبير حيث تشهد شاهدة عيان كانت مع الزبير، فقلت لها: أخبريني عن احتراق الكعبة كيف كان؟ قالت : كان المسجد فيه خيام كثيرة فطارت النار من خيمة منها، فأحرقت الخيام والتهب المسجد حتى تعلقت النار بالبيت فاحترق [2]

وتوضح رواية أخرى إن الحريق كان سببه رجل من أصحاب الزبير " وذلك أن رجلا منا وهو مسلم بن أبي خليفة المذحجي (من جنود ابن الزبير) كان هو وأصحابه يوقدون في خصائص لهم حول البيت ، فأخذ نارا في زج رمحه في النفط، وكان يوم ريح ، فطارت منها شرارة ، فاحترقت الكعبة حتى صارت إلى الخشب [3]

الحصار الثاني :

وكان في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ، وكانت قد آلت له الأمور في العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير ، أما الحجاز فكان لايزال تحت إمرة عبد الله بن الزبير إذ اعتصم به وسمي العائذ بالبيت ، والتمس في أرض الحرمين معقلا ولم يرد الخروج منه بحال .

وقد سير عبد الملك بن مروان جيشا بقيادة الحجاج واليه على العراق لمحاصرته في مكة ، إذ كان لا بد له من إزالة عقبته لأمان سلطته ودولته , فخرج جيشه من العراق باتجاه الحجاز طاعة لولي أمره وإخلاصا ووفاءً منه لدولة بني أمية ، وسعيا منه إلى تثبيت عرشهم من خلال قتال الخارجين على هذا العرش .

فخرج على رأس جيش لا يبلغ أكثر من ثلاث آلاف من المقاتلين عبر بهم الصحراء ونزل في الطائف وعسكر فيها واتخذ منها مقرا للقيادة وكان الغرض من إقامته بالطائف مطاولة ابن الزبير وانتظار ما يؤول إليه أمره .

[1] تاريخ خليفة خياط مجلد 1 / ص 252
[2] أخبار مكة للأزرقي مجلد 1 / ص 156
[3] أخبار مكة للأزرقي مجلد 1 / ص 157

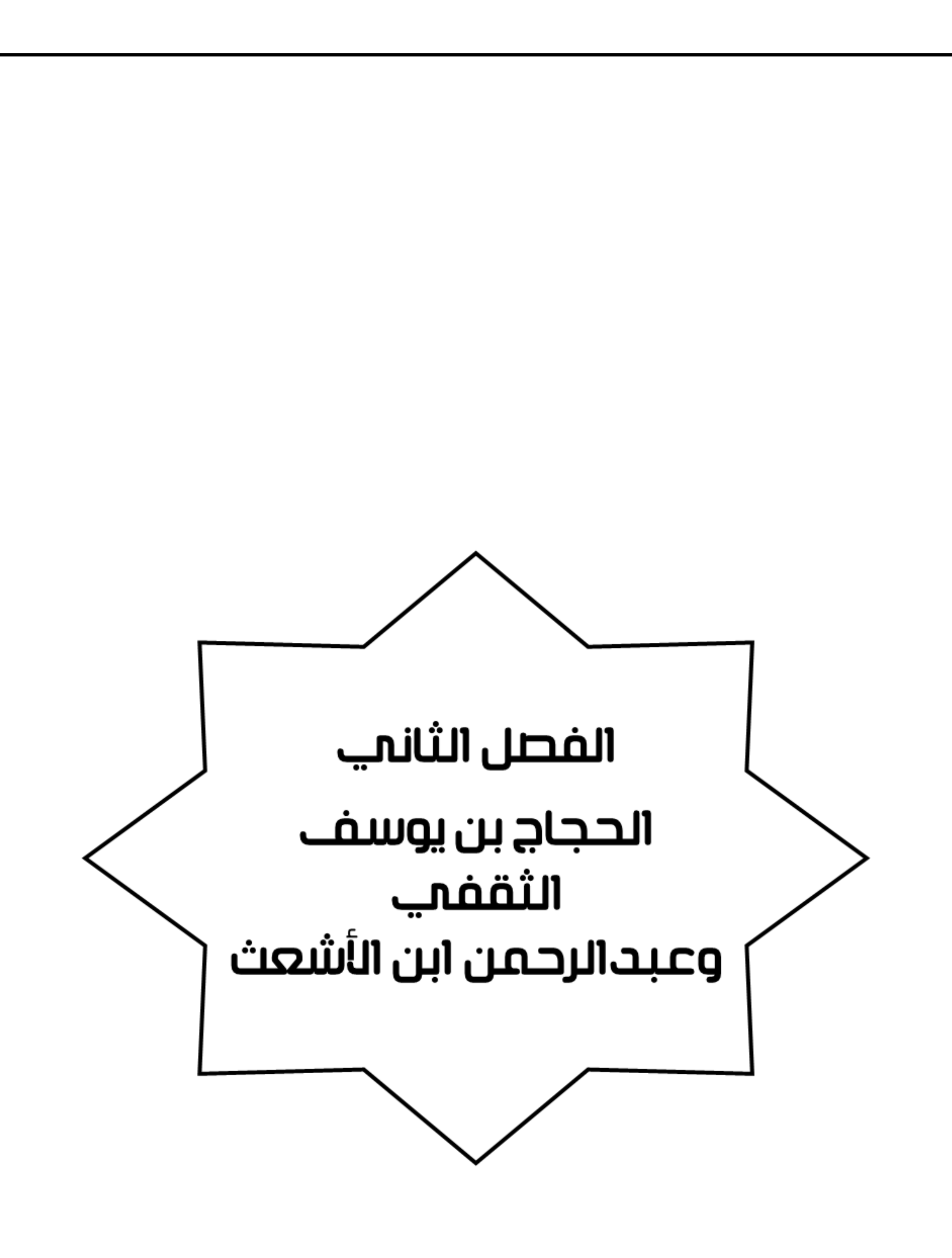
وكان حينئذ يسير منها السرايا الراكبة إلى عرفات وكانت تلتقي ببعض رجال ابن الزبير، فتصطدم معهم سبرا لغورهم والتماسا لمعرفة مدى قوتهم ، ولما طالت المناوشات بين الفريقين وكانت الكفة على الدوام راجحة للحجاج ، وكان الهدف من إطالة الحصار مطاولته وخروج المزيد من رجاله إليهم، فلما تبين ضعف خصمه وتفرق أصحابه عنه ، وفرار الكثيرين من جيشه ، كتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ويطلب منه المدد بالمال والرجال وأن يأذن له بدخول الحرم، للقضاء على الزبير، فأمده بطارق بن عمرو وكان واليا على المدينة التي آلت إلى عبد الملك بن مروان حيث أوفد طارق بن عمرو لمحاربة عمال الزبير على المنطقة الواقعة بين أيلة ووادي القرى ، فلما انتصر عليهم ، دخل المدينة وكان ذلك أثناء إقامة الحجاج في الطائف , فسار طارق في خمسة آلاف وأذن للحجاج في الحصار , وخرج بجيشه من الطائف متجها نحو مكة في غرة ذي القعدة من سنة 72 هـ , وأرسل فرقة من جيشه نصبت منجنيقا على جبل أبي قبيس وقعيقعان المجاور لمنزل جيش ابن عمرو ، وكان هدفه كما روي الزيادة التي زادها ابن الزبير على الكعبة ، وكانت هذي الزيادة من الناحية الشمالية مما يجعل رميها من كل من جبلي أبي قبيس وقعيقعان أمرا ميسورا دون أن تتعرض الكعبة لبقايا أحجار المنجنيق إن احكمت الرماية ، وسواء أرمى الحجاج الكعبة نفسها أم الزيادة التي زادها عبدالله بن الزبير فقد كان يعمل مضطرا مكرها ، ذلك أن بعض أعوان ابن الزبير صعد فوق الكعبة وصار يوجه الضربات إلى جيش الحجاج مما اضطره أن يوجه الضربات لهم ولا حيلة له في ذلك، وكان أن توسط بعض أعيان مكة لدى الحجاج طالبين منه أن يكف عن استخدام المنجنيق , إذ كانت وفود الحج مرحبا قد جاءت مكة وقد منعهم من الطواف ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان ذلك تعطيل لركن من أركان الحج ، فقد تدخل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فكتب إلى الحجاج يقول : (اتق الله فإنك في شهر حرام وفي بلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا)

فأجابهم (وأرسل إلى طارق بن عمرو أن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج وقال لهم : (والله إني لكاره لما ترون ولكن ما أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت) [1]

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري مجلد 1 / ص 125

وقد سبق الكلام في رواية عوانة أن أهل الشام قصفوا الكعبة، ولكنهم لم يضربوها إلا بالحجارة..



الفصل الثاني

الحجاج بن يوسف الثقفي وعبدالرحمن ابن الأشعث

الفصل الثاني

تمرد ابن الأشعث الكندي :

على أن خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث والذي كان واحدا من القادة الذين ألقي على عاتقهم حمل لواء الإسلام ، ونشره في المشرق ، وبين عشية وضحاها عاد وانقلب على الدولة وقاتلها كما قاتلها الأعداء ، فإن خروجه وانقلابه على الدولة الأموية تعد من الصفحات التي تستحق الوقوف عليها لبيان حقيقة الأمر فيها ، سيما وأن للحجاج بن يوسف الثقفي دوره في أحداثها ومحاربتها وإخماد أوارها الذي امتد لأربع سنين وثار فيها خلق كثير من أهل العراق (عربهم والموالي) ، فقاموا بخلع الحجاج وخليفة المسلمين الذي بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين ، فعزلوه وهو من صلبية قريش ، و بايعوا لابن الأشعث الذي شق عصا الطاعة بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد !!!

فكانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كثير ، وهلك فيه خلق كثير ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

و قبل الخوض في تفاصيل أكثر عن تلك الثورة وأسبابها و دوافعها، و العوامل التي أججتها وما ترتب عليها من نتائج سنعود بالزمن قليلا إلى ما قبل الثورة ، لنلقي نظرة على الأوضاع في ولاية العراق قبيل تولي الحجاج أمرتها ، ذلك بأن تاريخ تلك الولاية كان يشكل التاريخ الحقيقي للدولة الإسلامية ، ولا غرو في ذلك ، لمَّا كان لها دور في احتضان الثورات وتبني الحركات المعارضة لحكم الدولة الأموية ، فلم يكن ذلك لمجرد الصراع الذي استمر سنين طويلة حول الخلافة فقط ، فرغم القضاء على الثورة العنيفة التي قام بها شيعة الكوفة ومن انضم إليهم من الموالي بقيادة المختار الثقفي، إلا أنها خلقت في النفوس نارًا متوقدة ، ولم تكن البصرة قد تحررت بعد من الخوارج الذين كانوا يقفون أمام أبواب هذه المدينة مهددين لها ،

ولم يكن مصعب بن الزبير قد استطاع أن يقضي عليهم ، وقد فتوا في عضده وهو يحارب أهل الشام ، حتى اضطر أن يترك وراءه أحسن قواده لحماية البصرة من الخوارج ، ولما هزم مصعب وقتل على نهر دجلة أمام عبد الملك ، كان المهلب في ميدان القتال مع الأزارقة ، فأدرك جملة الموقف وتصرف طبقا لذلك ، وانضم إلى المنتصر وعرف له المنتصر قدره .

أما الأمراء الأمويون الذين أرسلهم عبد الملك أمراء على العراق فلم يكونوا ليصلحوا إلا لتولي المنصب بلا عمل .

فلم يكن من خالد بن أسيد الذي عين على البصرة إلا أن نحّى المهلب عن القيادة وجعله على خراج الأهواز ، وتولى هو في أول الأمر القيادة في محاربة الخوارج المتعصبين الخطرين ، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز ، فجاءت على أثر ذلك هزيمة لحقت بجيوش الدولة ، فلما كتب خالد إلى عبد الملك يخبره بها ، رد عليه عبد الملك مسفها رأيه في إبعاد المهلب البصير بالحرب المقاسي لها ، وفي جعله أخاه قائدا مع أنه أعرابي من أهل مكة ؛ وأمره بأن ينتفع بالمهلب ويستشيره في كل ما يتعلق بقتال العدو ، ثم إن عبد الملك ولى المهلب قتال الأزارقة ، ولكنه لم ينصفه بعزله خالدا وتعيينه أخاه بشرا بدلا منه ، وإسناده إماراتي الكوفة والبصرة إليه ، وكان غلاما أخرقا معجبا بنفسه ، ولم يكن أحسن صنعا ممن سبقه من الأمراء ، فشق عليه أن إمرة المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة ، وامتلأ قلبه حقدا عليه ، وهو قد شد أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآتي له من الخليفة ، ولكنه أمر قائدهم أمرا صريحا بأن يستبد على المهلب بالأمر ، وألا يقبل له مشورة وألا يحترمه ، وكان بشر أخرق فيما صنع لأنه استجهل القائد وطلب منه ما لا يصح طلبه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه ، ولذلك فإن ذلك القائد لم يكن منه إلا أنه تجاهل كلام الأمير الشاب واستخف بعقله وكان من حسن الحظ أنه توفي عام 74هـ،، فوجه عبد الملك الحجاج واليا على العراق ، وقد تولى الحجاج عمله في أول سنة 75هـ .[1]

وبعد أن كان القضاء على خطر الخوارج في شرق العراق وغربه ، ضم عبد الملك خراسان وسجستان إلى ولاية الحجاج ، بالإضافة إلى إمرة الكوفة والبصرة ،

---

[1] تاريخ الطبري ج2

فأعطى الحجاج ولاية خراسان للمهلب بن أبي صفرة ، قاهر الأزارقة ، وبقي هناك حتى وفاته سنة 82هـ .

ووجه إلى سجستان عبيد الله بن أبي بكرة ، البصري النابه من البيت الثقفي خلفا لعبد الله بن أمية الذي كان والده قد وجهه إلى سجستان وعقد له عليها ، فأخذ عليهم المضايق والشعاب حينما توغلوا في بلاده سنة ٧٧هـ ، مما اضطر إلى مصالحته على ألا يغزوا بلاده ما دام واليا عليها وفي المقابل يفتح الطريق أمامهم ، وقد كررها مرة ثانية مع عبيد الله بن أبي بكرة سنة ٧٩هـ ، وصالحهم على أن يدفعوا له خمسمائة ألف درهم ، وبعد أن حمل عليهم شريح بن هانئ قتلوه ، وهلك جماعة من المسلمين معه عطشا وجوعا بعد أن سلكوا طريقا ضيقا ، وحاصرهم العدو فيه ، واستدرجه إلى الإمعان في البلاد، حتى انتهوا إلى شعب ، ثم أخذ عليهم الطريق ، فلم يستطيعوا أن ينجوا ويشقوا طريقهم راجعين إلا بعد مصالحة الزنبيل وقد تكبدوا خسائر جسيمة أصابت جند الكوفة خاصة ، وحزن عبيد الله بن أبي بكرة عليهم حزنا قصّر أجله ، فيقال : مات رحمه الله كمدا لما نالهم وذلك سنة ٧٩هـ [1]

وبعد وفاته اختار الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكوفي لولاية سجستان خلفا لعبيد الله ، وكان في بلاد كرمان المجاورة لسجستان ، وكان أن شدَّ أزره بجيش كامل الأعطيات تام الأهبة والعدة ، انتخبه من أهل البصرة والكوفة ، ولذلك سمي بجيش الطواويس لتأديب زنبيل ملك الترك ، واستعادة هيبة المسلمين وسلطانهم ، وإجباره على دفع الخراج الذي منعه ، الذي سيقود فيما بعد ثورته ويعلن تمرده على سلطة الدولة ويخلع واليه والخليفة .

بين يدي الفتنة :

مع تولي الحجاج إمرة العراق كانت تنتظره هناك مهمات صعبة لرأب الصدوع ، وردع الأخطار ، وإخماد الفتن والتمردات التي تهدد أمن الدولة ، ونجح إذ ذاك في

---

[1] تاريخ الطبري ج5 / 136
الكامل في التاريخ بن الأثير ج4 / ص72

إعادة النظام بين جند الكوفة والبصرة ، وأجبرهم بسياسته الصارمة على العودة إلى معسكراتهم في رامهرمز والتي تركوها سأما منهم ، و دون إذن لهم بذلك .

وتم له القضاء على الثورة الخطيرة التي قامت بسبب نقص الزيادة التي كان ابن الزبير قد زادها في أعطيات أهل العراق ، وكانت لتودي بسلطة الدولة لولا قضاءه عليها .

ومع إرساله الحملات لمناجزة الأزارقة من الخوارج الذين لم يتمكن من إخماد فتنتهم إلا بعد سنتين ، كان هناك خوارج غرب العراق (بنو شيبان من بكر) ، وزعيمهم الأبرز شبيب بن يزيد الذي هزم جيوشا كثيرة أرسلها الحجاج حتى طرق أبواب العاصمة ، واتخذ من جوخى أرضا لصولاته ، ولبث في بلاد أذربيجان مدة تقاطر إليه في أثنائها خلق كثير، وتقدم سنة77هـ بجيش كبير ، ولم يتمكن الحجاج من القضاء على ثورته إلا بالاستعانة بجند الشام الذين انقذوا الكوفة من خطره .

في ذلك الوقت وفي خضم تلك النزاعات بعث الحجاج (عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث) ، وكان إذ ذاك واليه على سجستان على رأس جيش جهز أحسن تجهيز حتى أطلق عليهم جيش الطواويس لحسن زيِّهم إلى بلاد الترك لتأديب ملكها الزنبيل الذي كان قد اعترض المسلمين أكثر من مرة في تلك الجهات البعيدة ، وكان أن حاز هذا الجيش في حملته تلك أرضا عظيمة وامتلأت يداه بالغنائم ، إلا أنه حبس الناس عن الوغول في أرض العدو حتى يتعود جنوده على طبيعة الجبال ، بما فيها من شعاب وعقاب ، متبعا بذلك طريقة خاصة في إدارة المعارك ، فلم يقم بغارات متفرقة ، بل بحرب حقيقية منظمة , وكان يحذر مغبة التسرع في التوغل في البلاد ، لقلة معرفته بها وبطرقها ، وكان يرى أن الأمر يحتاج وقتا طويلا حتى يتعرف المسلمون عليها وعلى مسالكها ، وأحس كذلك بما ناله الجند من تعب ، وخشي أن يكون زنبيل قد نصب له وللمسلمين كمينا كما صنع مع السابقين ، فيحوز غنائمهم وأموالهم ، فكان حريصا على ألا يفتح حصنا ولا يجاوز عمرانا إلا وخلف فيه قائدا معه حامية من المسلمين ، ونظم المراسلات بالبريد بين البلاد ، وجعل الأجناد على العقاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان مخوف .

إلى هنا يبدو أن ابن الأشعث ظل على ولائه للحجاج حتى ذلك الوقت ، وأخلص في عمله كقائد لذلك الجيش ، ففتح بست والرخج وحارب أمم الترك من الغور

الخلج ، ثم حارب زنبيل ، وعندما رأى التوقف والاكتفاء بما في أيديهم هذا العام خوفا من أن تُهدرَ دماءُ المسلمين بسبب سياسة زنبيل التي رغب في تنفيذها ، وأنه لم يكن ينوي الخروج عن طاعة واليه وكان مخلصا له أول الأمر على الأقل ، بدليل وصول كتاب من ابن الأشعث وردت فيه تفاصيل كاملة عن الخطة الجديدة التي يريد انتهاجها ، والأسباب التي دفعته إليها ، إلا أن الخلاف بدأ بين الحجاج وقائده ، مع كتاب الحجاج له الذي يوصيه فيه بضرورة مواصلة التوغل .

إذ كان الحجاج يرى من موقعه في أرض العراق أن السياسة التي اتفق عليها لا بد أن تطبق بحذافيرها ، لأن الانتظار عاما كاملا يتيح لعدوه تنظيم صفوفه من جديد ، ويستعين بمدد آخر ليقضي على المسلمين ، فكان يرى أن الاستمرار في ملاحقة العدو وهو في حالة ضعفه ، قبل أن تندمل جراحه ، أفضل بكثير مما لو كان ذلك بعد عام آخر ، وكان يحدوه الأمل في الانتقام من عدوه في فترة وجيزة وطمعا بزيادة رصيد فتوحاته في تلك البلاد ، وكونه ذلك الرجل السريع الغضب والقليل الصبر كما عادته ، كان يرى ضرورة التقدم والتوغل في هذه البلاد ، فكتب إليه يصفه بالضعف والجبن ومحبة المهادنة والموادعة ، وحثه في كتب متلاحقة على التقدم في بلاد العدو والتوغل فيها، وهدده إن لم يفعل ، بأن يجعل القيادة لأخيه إسحاق بن محمد بن الأشعث ، حتى يصير هو من تحت يده كبعض الجند ، فغضب عبد الرحمن ، وكان مصرًّا على رأيه في التوقف عن التوغل ، وإن خالف بذلك أوامر القيادة ، وجمع رؤوس الناس وأخبرهم بما تضمنته كتب الحجاج ، وقال لهم : (إني لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر ، ولقد كان من رأيي فيما بيني وبين عدوكم رأيٌ استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة للحرب منكم فرضوه رأيا ... , وقد كتبت إلى أميركم الحجاج ، فجاءني منه كتاب يعجّزني ويضعِّفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك أخوانكم فيها بالأمس ، وختم عبد الرحمن كلامه قائلا: " وإنما أنا رجل منكم أمضى إذا مضيتم وآبي إذا أبيتم ")[1] .

وكان ابن الأشعث يعلم تماما ما سيقول أهل العراق في جوابهم ، وهم الذين يبغضون الحجاج بطبيعة الحال ، فكرهت نفوسهم ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة في بلاد قاسية، ورحبوا بالفرصة التي ستسنح لهم للعودة إلى أوطانهم.

[1] تاريخ الطبري ج5 / 146
البلاذري أنساب الأشراف

فلما انتهى من كلامه ساروا إليه فقالوا : (لا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع , ثم قام عامر بن واثلة الكناني وكان أول من خلع الحجاج، فقال: إن الحجاج لا يرى فيكم إلا رأي من قال لأخيه احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك وإن نجى فلك ، إن الحجاج والله لا يبالي أن يخاطر بكم بلادا كثيرة اللغوب والعقاب والأشب ، فإن ظفرتم ، فغنمتم أكل البلاد وحاز المال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتهم ولا يبقي عليهم , فاخلعوا الحجاج ويايعوا أميركم عبد الرحمن ، فإني أشهدكم أني أول خالع ، وقام آخر وهو عبد المؤمن بن شبث بن ربعي فقال: " إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمَّركم تجمير فرعون الجنود ، ولن تعاينوا الأحبة أو يموت أكثركم فيما أرى ، بايعوا أميركم وانصرفوا إلى الحجاج ، فانفوه عن بلادكم ووثب الناس إلى ابن الأشعث ، وبايعوه جميعا على خلع الحجاج وجهاده حتى يخرج من العراق وكان أشدهم حماسا يَمَنُ الكوفة الذين كان منهم ابن الأشعث) [1]

إلى هنا يظهر أن مخالفة ابن الأشعث لأوامر القيادة العليا الممثلة بوالي العراق هي السبب وراء خروجه بالإضافة إلى بغض أهل العراق للحجاج بسبب شدته وصرامته معهم .

أسباب تمرد ابن الأشعث :

إلى جانب السبب المشهور الذي أشرنا إليه سابقا ، كانت ثورة ابن الأشعث وليدة لعوامل أخرى كان لها تأثير في الأحداث التاريخية الكبرى عند العرب ، وكانت تمثل في ذاتها لونا من مظاهر النزاع بين عرب العراق و الشام ، حتى قال بسطام

---

[1] أنساب الاشراف للبلاذري ص326 وما بعدها

بن مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وهو رجل من أهل العراق لما دعاه قتيبة بن مسلم للحجاج : " لأن أموت مع أهل العراق أحب إلي من أن أعيش مع أهل الشام " . [1]

هذا وإن كان للموالي دور فيها إلا أنه دور ثانوي تمثل في الدعم والتحريض ولعل أهم العوامل التي أججت هذا النزاع :

- العصبية القبلية التي تولدت عن طبيعة الرجال الذين قاموا بها، واعتدادهم بأنفسهم وطموحهم للقيادة .

- وامتيازات عرب الشام على عرب العراق التي زادت من حجم كره أهل العراق للحجاج وبغض أهل الشام

أولا : دور العصبية القبلية

أحدثت العصبية القبلية العراقية أثرا عظيما في نفوس أهل العراق ، مما جعلهم يترقبون الفرصة المناسبة كي يعبروا عنها ، ولم يجدوا أفضل من هذا الوقت الذي جمع فيه الحجاج أربعين ألفا منهم ، ثم جعل عليهم رجلا من أهل الكوفة .

أ - فمن جهة عبد الرحمن بن الأشعث الذي يرجع نسبه إلى ملوك كندة ، والذي نشأ في أسرة شريفة عريقة يطمح افرادها إلى العلو والرقي ومحبة السلطة والمركز العظيم ، ولا شك أنه تأثر بذلك ، وكان يشعر أن دم المجد القديم يجري في عروقه ، فلا غرو بعد أنه كان أشد العرب أبهة وكبرا ، وأنه كان معجبا ذا نخوة وطموح شديد، فكان يقول : " ما رأيت أميرا فوقي إلا ظننت أني أحق بإمرته منه" [2] .

ونظرا لهذه الروح المعروفة عنه من الاعتداد والفخر والطموح للترأس ، فَإنه لما أراد الحجاج أن يوليه قيادة جيش الطواويس ، جاء إليه إسماعيل بن الأشعث بن عبد الرحمن يشير عليه بأن لا يوجهه في الجيش خوفا من تمرده ، وقال عم عبد الرحمن عنه : " أنه ما جاز جسر الفرات قط ،فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطانا .."

---

[1] تاريخ الطبري ج5 / ص165
[2] البدلية والنهاية لابن كثير ج9

ب - ومن جهة أخرى كان الحجاج بن يوسف من ثقيف الطائف ، رجلا ليس من علية أشراف العرب ، ولكنه كان واليا من ولاة الدولة ، يعمل لمجدها ويخضع لرئيسها ومهمته إقرار النظام وحماية الحدود وتوسيعها وزيادة قوة الدولة في الداخل ونحو الخارج .

ج - وكان هناك من جهة ثالثة أهل العراق ، قوم أصحاب ثراء وتحضر وحياة رغدة هانئة ، يدلون بغنى بلادهم وخصبها ، ويضمرون في انفسهم شيئا من الاحتقار لأهل الشام الفقراء ذوي العيش الضنك ، وشيئا كثيرا من الغيرة منهم والمقت لسيادتهم والاستهانة بقدرهم، ويطمحون للرئاسة أو الاستقلال ، فكانوا على استعداد أن يتعلقوا بكل ثائر على سلطان أهل الشام أيًّا كان ، سواء كان من بني هاشم ، أو من غيرهم ، وذلك لكرههم الحجاجَ وسياسته تجاههم ، ولضجرهم من التضحية بأنفسهم وعيشهم الرغد والموت في بلاد العدو القاصية من أجل مجده وخليفته بالشام .. كل ذلك دفعهم إلى أن يتبعوا ثورة ابن الأشعث ، لمَّا جمعتهم فيها المصلحة والعصبية حتى قيل : " حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم ، يا أهل خراسان ، انسبوني تجدوني عراقي الأم ،عراقي الأب ،عراقي المولد ، عراقي الهوى والرأي والدين " ، وفي المقابل كان اهل الشام عصبية واحدة ، تجمع بينهم مصلحة قبلية وسياسية واقتصادية .

فلما كانت الحرب مع الزنبيل ، وأمر الحجاجُ (رجل الدولة) ابن الأشعث (الأمير العربي) على جيش من صفوة أهل العراق رغم نصيحة الناصحين له بأن لا يفعل ، وقال لناصحه : " أنه لي أهيب وفي أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي " ، ظنا منه أنه سيكون القائد العربي المطيع له ، وإن اشتد معه ، وأنه خاضع لأمره وإن أهانه وصغر من أمره ، وقد أخطأ في ذلك التقدير ، إذ غاب عن رجل الدولة ما في ابن الأشعث من الطبيعة العربية من إباء وأنفة من احتمال الضيم ، وما جبلت عليه الطبقة الارستقراطية العربية بطبيعتها المتجذرة ، فأنفت المعاملة الجارحة والغطرسة التي أبداها الحجاج ممثل سلطان الدولة الذي لم يكن يعتبر من أشراف العرب ، وتبعت القبائل العربية رؤساءها ، (وكانت القبائل هي فرق الجيش) ، وكانوا أشد رغبة في اتباع رؤسائهم بعد أن أصبح طول الحرب والإقامة في المسالح القاصية شيئا بغيضا إليهم بالجملة ، وصار لا ينقطع حنينهم إلى أوطانهم ، وكان يَمَنُ الكوفة وخاصة من كندة وهمدان ومذحج كثيري العدد بين

الجند ، وكانوا في الكوفة هم الغالبية ، وكانوا يعدون ابن الاشعث منهم ، ولكن بقية القبائل وقبائل البصرة لم يكن بينهم تنافر .

ويؤيد هذا الزعم ما ورد في كتاب الأغاني للأصفهاني : " ولما خرج ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف حشد معه أهل الكوفة ، فلم يبق من وجوههم وقراءهم أحد له نباهة إلا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم.."

ثانيا : تفضيل أهل الشام على أهل العراق في الأعطيات ومنحهم الامتيازات دونهم :

باعتبار جند الشام يمثلون الحاضنة الشعبية الوفية الأمينة لدولة الخلافة وباعتبارهم جندها المخلصين كانوا أكثر عطاء من أهل العراق وهو الأمر الذي أثار سخط العراقيين ، فكانت الثورة في مجملها محاولة قوية ومستميتة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم ، سيما أن الحجاج زاد من ضجرهم من هذا النير ، وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم لمحاربة شبيب في بلاد العراق ، ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان الخارجي بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها في الداخل، وكان هؤلاء الجند يمثلون لأهل العراق السيادة الأجنبية مجسمة ، بينما على جند العراق أن يقنعوا بالأعطيات القليلة ، ويحتمل في الوقت نفسه مؤونة جند الشام وكانوا يوجهون في حملات بعيدة ويرسلون إلى المسالح القاصية ، على حين كان يبقى جند الشام في أهلهم .

وهذا ما يحسم طبيعة ذلك الصراع ، فهو لم يكن صراعا بين الموالي والعرب بل كان صراعا بين عرب العراق وعرب الشام [1]

وصراعا بين ولايتين في الدولة العربية ، كانتا تتنافسان دائما ، وكان أهل العراق أيا كان أصلهم متحدين في ذلك الصراع ، وكذلك كان جند الشام يشعرون وهم في خارج وطنهم بما بينهم من روابط الاتحاد ، على أنهم كانوا في الأغلب ينتسبون إلى كلب وقضاعة ، ويبدو ذلك في وصف شاعر العراق لموقف أهلها بعد رحيلهم مع ابن الاشعث ، فقال بيتا هجا فيه أهل الشام ووصفهم بأنهم غير متحضرين وبأنهم الأنباط الأقباط الأعراب فقال :

---

[1] تاريخ الطبري ج2 / ص189

تركنا دورنا لطغام عكا

وأنباط القرى والاشعرينا

وأما عن الأعطيات التي ربما حرم منها أهل العراق في حين أعطيها أهل الشام ، فلم يكن القصد التمييز بين العرب (سكان أهل الشام) والموالي (غالب سكان العراق) ، ولا بين العرب والعرب أنفسهم ، وإنما هي مقاييس وضعت لتسيير دفة الدولة الإسلامية ، و تأدية مهمتها الأساسية ، وهي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الداخل ، وحمل الدعوة إلى الخارج ، فالعرب كانوا في ذلك الوقت حملة رسالة الدين الإسلامي ، وقام على أكتافهم بناء الدولة لأن أكثر الصحابة عرب , ومن ثم تطلب الأمر تفضيلهم في العطاء على جماعة الموالي .

ثم إن العرب نظرا لتفرغهم للشؤون الحربية والفتوح الإسلامية تركوا للموالي الناحية الاقتصادية ، حتى صاروا القابضين على عصب الصناعة والتجارة في شتى المدن وخاصة في البصرة والكوفة.

وحين انضم #الموالي إلى إخوانهم العرب في الجندية شملهم من قبل الدولة الأموية العطاء كغيرهم باعتبارهم جندا يقاتلون في سبيل الله وينشرون الدعوة مع العرب المسلمين .

إلا أنهم ومع خروج ابن الأشعث وجدوا فرصتهم في المطالبة بحقوق المساواة في الأعطيات والهبات مع العرب كما سنرى لاحقا .

دور الموالي في فتنة ابن الأشعث

ثورة ابن الأشعث بين التمرد العربي وطموح الموالي

يرى المستشرق النمساوي ألفريد فون كريمر أن ثورة ابن الأشعث راجعة إلى طموح من جانب الموالي ، وهم الرعايا الذين دخلوا الإسلام في الكوفة والبصرة وهم غالب سكان العراق ، للحصول على المساواة السياسية بطبقة الأشراف الحاكمين للتخلص من دفع الجزية ، وإلى طموحهم في أن تقيد أسمائهم في ديوان أصحاب الأعطيات ، والتي كانت رمزًا يدل على شرف العرب ، وتقديرا لجهودهم في سبيل نشر الدعوة .

وأما الحجاج ، وفي سبيل معالجة الصعوبات التي نشأت من دخول الموالي في الاسلام طلبا للمساواة السياسية ، وفرارا من الجزية، ولتلافي التناقص في دخل الدولة الناشئ عن توسيع نطاق الإعفاء من الضرائب ومنح الأعطيات للمسلمين من غير العرب ، أمر بفرض الجزية من جديد (كإجراء علاجي مؤقت) على الموالي الكثيرين الذين دخلوا في الإسلام ، والذين ما كان يجوز عليهم وفق الشرع أن يدفعوا جزية طالما أنهم أسلموا ، وبذلك أضرموا نار ثورة مريعة قام بها المسلمون الجدد ومواليهم .

وقد اشترك فيها بنوع خاص كثير من الناس من أهل البصرة ومن المقاتلة القدماء والموالي والقراء .

وفي رواية أنه كان من هؤلاء الثوار مائة ألف رجل مقيدين في ديوان الأعطيات , وكانوا من فرق المقاتلة في الأمصار ، وقد انضم إليهم مثلهم .

وهنا يلزمنا التذكير بأن ثورة ابن الأشعث كان مهدها الحقيقي في الكوفة شأن ثورة المختار التي لم تقضي الدولة بإخمادها تماما على طموح هؤلاء المسلمين الجدد في الارتفاع ، فلا يستقيم القول بأن ثورة ابن الأشعث كانت في روحها مجرد استمرار لثورة المختار ، فذلك لا يجد سندا يؤيده في المصادر الأولى الأساسية التي اعتمد عليها الطبري ، ولا في كتاب انساب الاشراف .

فلم يكن الموالي هم الذين طبعوا ثورة ابن الأشعث بطابعها الخاص كما في ثورة المختار , ولو أن كثيرين منهم اشتركوا فيها ، كما ويذكر أبو مخنف أنه كان في

معسكر دير الجماجم مائة ألف من أصحاب الأعطيات من المقاتلة العرب ، وكان معهم مثلهم من مواليهم ، ولكن هؤلاء الموالي كانوا مجرد مرافقين للسادة العرب ، إذ كانت العادة أن يأخذ هؤلاء مواليهم معهم ، إن كان لهم موالٍ إلى ميدان القتال ، ويجعلونهم يقاتلون معهم راجلين ، أما هم فكانوا يقاتلون على ظهور الخيل ، وعلى أن الموالي قد اشتركوا في الثورة ، فإن ذلك لا يجعلها ثورة الموالي ، لكن الراجح غالبا أنه قد كانت للموالي مصلحة خاصة في معاداة حكومة الشام التي كانت عماد العروبة ، فركبوا سفينة الثورة واستغلوا موقف عرب العراق وتبعوهم في تمردهم ، ولكنهم لم يكونوا أكثر من مؤيدين وتابعين ، ولم تأتي الثورة منهم ، بل من جانب (جيش الطواويس) وهو الجيش الذي كان يؤلفه أهل العراق العرب ، والذي انضمت إليه مسالح سائر الولايات والثغور، وقد قام هذا الجيش بالثورة حين صار في سجستان ،ثم فتحت له الكوفة والبصرة الأبواب .

هذا وقد اشترك في ثورة ابن الاشعث أكابر العرب وأكثرهم نباهة، فكان منهم رؤساء قبائل مثل ابن الأشعث الكندي وجرير بن سعيد بن قيس من همدان [1] وعبد المؤمن بن شبث بن ربعي من تميم ، وبسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني من بكر وكان منهم قرشيون مثل محمد بن سعد بن أبي وقاص ، وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد شمس ، وعبد الرحمن بن العباس الهاشمي , وكان منهم علماء مثل القاضي الشعبي والمؤرخ محمد بن السائب الكلبي صاحب أبي مخنف .

ولا يذكر إلا اسم مولى واحد هو اسم فيروز الحصين ، وهو رجل صاحب ثراء من سجستان ، وكان هو الممول لحركة ابن الأشعث فحين التقى الجيشان قال الحجاج : " من أتى لي برأس فيروز ، فله عشرة آلاف " ، فصاح فيروز في الناس وقال : " من عرفني فقد اكتفى ، ومن لم يعرفني ، فأنا فيروز حصين ، وقد عرفتم مالي ووفائي ، فمن أتى برأس الحجاج ، فله مئة ألف درهم " وقد تمكن الحجاج منه وقتله [2] .

دور القراء في فتنة ابن الأشعث :

فضلا عن الموالي والدور الزهيد الذي لعبوه ، ولمَّا كان للفتن في أول نشوئها لذة

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ص340

[2] كتاب الأوائل للعسكري ص ٣٣٨

وحلاوة تستهوي كثيرا من الناس ، فقد أثارت ثورة ابن الأشعث حماس القراء والفقهاء والزهاد الذين يمثلون فئة أهل الدين وعلماء القرآن ، وخرج كثير منهم مع ابن الأشعث ، فضلا عن عامة الناس ، وكان كلامهم في أول الفتن قويا ومهيجا ، وأبدع خطباؤهم في التحريض على قتال الخليفة ، وكانوا من أشد الناس حماسا وأقواهم صوتا في الثورة ، وفي كل مناسبة كهذه يظهرون في المقدمة باليد واللسان، مدفوعين بسخطهم على الحجاج ومحتجين بإخراجه الفلاحين من المدن وإرجاعهم إلى قراهم الاصلية ، ما أثار تعاطف القراء في البصرة فخرجوا يبكون معهم ، فصادف خروجهم مجيئ ابن الأشعث ، فانضموا إليه مستحلين قتال الحجاج اجتهادا منهم بسبب ما نسب إليه من أعمال أو أفعال كانت بنظرهم تؤدي بصاحبها إلى الكفر، وكان ممن تبع ابن الأشعث من هؤلاء القراء والأعيان
مسلم بن يسار وأبو الجوزاء ، وأبو المنهال الرياحي، ومالك بن دينار ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه، وطلحة بن مصرف ، وعطاء بن السائب ، وغيرهم، وقد اختلف في عددهم ، وكان شعارهم يا لثارات الصلاة .[1]

أما ابن الأشعث فقد علم مكانتهم بين أهل العراق وكان حريصا على إشراكهم في تمرده لإضفاء الشرعية الدينية عليه ، ذلك أنه لم يكن هناك بد ما دامت الحكومة تيوقراطية قائمة على حكم الدين من بيان السند الذي من أجله تتهم السلطة الحاكمة بالظلم ، وعلى أساسه تَحِلُّ الثورة عليها ، وخاصة أن ثورته لم يكن لها بالجملة أسبابا دينية مقنعة تبررها ، فسعى لضمان خروجهم معه ، إذ قيل له : " إن أردت أن يقاتل الناس حولك كما قاتلوا حول هودج عائشة فأخرج الحسن البصري معك " فأخرجه ، مع سعيد بن جبير وابن أبي ليلى الفقيه وطلحة بن مصرف وعطاء بن السائب ، وعامر الشعبي .

وقد قام أولئك القراء بكل حال بدورهم في إثارة الفتنة وفي التحريض وشرعنة الخروج وخلع الوالي والخليفة ، واستحلال قتالهم مع يقين بعضهم بأن ممارسات الحجاج في حق أهل العراق مهما بلغت من قسوة وشدة لا تسوغ لهم الخروج

قال الحافظ ابن كثير:
"وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك ، واشتد الحال وتفرقت الكلمة جدا

---
[1] أنساب الأشراف للبلاذري ص615

، وعظم الخطب واتسع الخرق , ثم التقى جيش الخليفة وجيش ابن الأشعث ، فقال القراء الذين خلعوا البيعة :
أيها الناس قاتلوا عن دينكم ودنياكم .

وقال عامر الشعبي
-وكان من الأئمة ، لكن ابن الأشعث فتنة -
قال : قاتلوهم على جورهم ، واستـغلالهم الضعفاء!!
وإماتتهم الصلاة.."

ويمكن الوقوف على وجهات نظرهم بصورة دقيقة من خلال بعض الخطب التي ألقاها زعماؤهم في معركة دير الجماجم
فكان من رأي سعيد بن جبير أنهم يقاتلون الحجاج و جيشه بسبب الجور في الحكم ، والخروج من الدين ، والتجبر على عباد الله ، والاستئثار بالفيء ، وإماتة الصلاة ، واستذلال المسلمين [1] .

وأما عبد الرحمن بن أبي ليلى فكان يرى أنهم يجب أن يقاتلوا المحلِّين المُحْدِثين المبتدعين الذين يعملون بالعدوان ، وأن من تصدى للعدو بالسيف فذلك الذي أصاب سبيل الهدى . [2]

وأما الشعبي فقال : " أنه لا يعرف أمة أظلم ولا أجور في الحكم منهم ، لهذا يجب ألا يأخذهم الحرج في قتالهم .." [3]

أما أبو البختري الطائي، فيرى أن قتالهم يجب أن يكون على الدين والدنيا ، لأن عدم الانتصار في رأيه معناه ، فساد دينهم وخسارة دنياهم . [4]

---

[1] طبقات ابن سعد 6 / 185
[2] تاريخ خليفة خياط 1/ 287
أنساب الأشراف للبلاذري ج6 / ورقة 27
طبقات ابن سعد 6 / 74 - 77
[3] أنساب الأشراف للبلاذري ج6 / ورقة 28
طبقات ابن سعد 6 / 74 - 77
[4] تاريخ خليفة خياط1 / ص 287
طبقات ابن سعد 6 / 204

ومن هنا يبدو حسب هذا التصور أن بيعة ابن الأشعث كانت على كتاب الله وسنة رسوله ، وخلع أئمة الضلال وجهاد المحلين .

حتى إن رواية الدينوري تصور الثورة وكأنها ثورة دينية ، حركها ابن الأشعث في عباد أهل الكوفة وقرائهم ولا يخفى أن هذه الرواية ناقصة ولا تقدم تفسير واضح للأحداث .[1]

ولكن في رواية لابن أعثم ما يناقض هذا الاتجاه الديني ، فقد ذكر : " أن ابن الأشعث نفسه يعترف بعد هزيمة دير الجماجم أنه لم يكن سوى طالب دنيا لا طالب دين ، فهو يقول :

فما كنا أناسا أهل دين

فنصبر للبلا إذا ابتلينا

ولكنا أناس أهل دنيا

فتنصرنا وإن لم نرج دينا[2]

وعليه فثورة ابن الأشعث لم يكن لها بالجملة أسباب دينية ، بل كانت هي بالأحرى محاولة جديدة وقوية ومستميتة من جانب أهل العراق لطرح نير أهل الشام من على كاهلهم .

ولما جاء الحجاج زاد من ضجرهم من هذا النير وذلك أنه استبقى جند الشام الذين كان قد جاء بهم لمحاربة شبيب في بلاد العراق ولم يكن ذلك بقصد حماية الدولة من العدوان الخارجي بمقدار ما كان لأجل حماية سلطانها في الداخل ، فكان هؤلاء الجند يمثلون السيادة الشامية التي أنفها أهل العراق عبر الزمن .

---

[1] الأخبار الطوال للدينوري ص322
[2] الفتوح لابن أعثم الكوفي ج4 / ورقة 108

أضف إلى ذلك ، أن من بين القراء من رفض الاشتراك في الثورة واعتزل لعدم تأكده من أنه لا يكون آثما بخروجه مع القراء [1] ، فعندما طلب هؤلاء القراء من الحسن البصري أن يبدي رأيه في الاشتراك بها قال : " أرى أنها فتنة صماء ذلك أنكم لم تختلفوا في ربٍ ولا نبي ولا كتاب ولا قبلة ،فرحم الله عبدا اتقى ربه ونظر ليوم معاده ، وقال لهم أيضا : إنما ابتليتم بالحجاج عقوبة ، فلن تستطيعوا أن تردوا عقوبة الله بأسيافكم . "[2]

ومع ذلك فقد أكرهه ابن الأشعث على الانضمام إليه كما ذكرنا. [3]

وبعد فشل الثورة ، أظهر الكثير من القراء ندمهم على الاشتراك فيها .فعندما سئل مالك بن دينار " أعلى الكفر قوتل الحجاج ؟ قال ليتنا لم نشهد وليت من قتل منا نجوا " . [4]

وقال طلحة بن مصرف : وودت أن يدي قطعت ولم أشهد دير الجماجم.
وذكر أنه يتمنى لو مات قبل دير الجماجم بعشرين سنة . [5]

أما الشعبي الذي اعتذر للحجاج لخروجه ، فوصف الثورة أنها " فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء ، وقد عفا عنه الحجاج بسبب هذا الاعتراف وقال : " صدق والله ما بروا حيث خرجوا ولا قووا حيث فجروا , أطلقوا عنه . [6]

وقال أيوب :

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ج11 / ص40
[2] ابن أعثم الكوفي ج2 / ورقة 109
طبقات ابن سعد ج7
أنساب الأشراف لابن سعد ج11
[3] طبقات ابن سعد ج8 / ص118 – 119
تاريخ خليفة خياط 1 / 287
أنساب الأشراف للبلاذري ج11 / ورقة 37
[4] أنساب الأشراف للبلاذري ج11 / ورقة 37
[5] تاريخ خليفة خياط 1 / 288
الطبري ج2 / ص 1112 - 1113
[6] تاريخ خليفة خياط 1 / 288
أنساب الأشراف للبلاذري ج6 / ورقة 30
الطبري ج2 / ص1112 - 1113

فما منهم من أحد صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه ، ولا نجا أحد منهم إلا حمد الله أن سلمه

قال الحافظ ابن كثير : والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة : كيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين ، فيعزلونه وهو من صلبية قريش ، ويبايعون لرجل هندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد
ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كثير ، هلك فيه خلق كثير ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

و لمزيد اطلاع مع المصادر (انظر كتاب العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي) لمؤلفه د. عبد الواحد ذو النون طه..

خبر مقتل سعيد بن جبير

لم تشتهر حياة التابعي سعيد بن جبير ، مثل شهرة الحوار الأخير الذي جمعه مع الحجاج بن يوسف الثقفي قبل مقاله مباشرة سنة ٩٤هـ ، رغم أن الحوار لاقى شهرة في كتب المطالعة .

سعيد بن عبيد الله بن جبير الأسدي ، بالولاء، الكوفي ، أبو عبد الله : تابعي ، من مواليد عام ٤٦هـ في الكوفة ، وهو حبشي الأصل من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد .

أقام في أصبهان في إيران ، وبعدها توجه إلى العراق ثم إلى المدينة المنورة ، وأخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر وأبي موسى الأشعري , واتسعت شهرة سعيد بن جبير العلمية ، وكان بالتوازي معها سطوع نجم الحجاج بن يوسف في سماء السلطة ، ووصل إلى أعلى قمة المجد .

فكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيدا .

ولما خرج عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن ، فذهب سعيد إلى مكة فقبض عليه واليها (خالد القسري) وأرسله إلى الحجاج ، فقتله بواسط . قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه . وفي آخر ترجمته في وفيات الأعيان ، أنه كان يلعب بالشطرنج استدبارا.

بدأت جذور الصدام بين الحجاج بن يوسف وسعيد بن جبير وفق تاريخ الطبري ، حين قرر الحجاج غزو مملكة الترك بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث ، واتسعت نطاقات انتصاراته حتى فكر في الخروج على الحجاج بن يوسف نفسه .

نجح ابن الأشعث في انتزاع الكوفة والبصرة من يد الحجاج ، وبالتوازي مع ذلك قرر أهل الذمة الدخول في الإسلام ، ليتخلصوا من دفع الجزية ، وتركوا القرى التي يعملون فيها ، و استقروا في المدن ، ما أدى إلى قلة الخراج وقرب إفلاس الهيئات المالية

قرر علماء البصرة تكوين حشد لنصرة ابن الأشعث ، وكان على رأسهم سعيد بن جبير الذي كان رأس الموالي والمحرض على الانقلاب على الرغم أنه كان احد رموز الدولة الأموية وأحد رجال الحجاج ، إلا أن أصوله الشعوبية وحقده على العرب جعله ينقلب على الأمويين ، فكان رأس الفتنة ، وكان معه عبد الرحمن بن أبي ليلى ، و الشعبي ، وما أن لاحت آفاق النصر لابن الأشعث على الحجاج ، حتى بدأت المسائل تتغير وانتصر الحجاج وهرب ابن الأشعث ، ثم ألقي القبض على سعيد بن جبير ، ودارت بينهما سجالات أجملت في حوار تاريخي مشهور في كتب التاريخ .

لكن الجدير بالذكر هنا أن قصة هذا الحوار موضوعة ومحرفة عن الذي ورد في مقتله ، وكثيرا من علماء التاريخ نسفوا صحتها ، فشمس الدين الذهبي يقول بأنها غير صحيحة ، لأنها مروية عن حفص بن سليم السمرقندي ، وهو وفق علماء الرواية كان كاذبا مجهول لا يعرفه كثير من علماء علم الرجال ، ولا يعتدون برواياته .

فيقول بعد ذكر الرواية : " هَذِهِ حِكَايَةٌ مُنْكَرَةٌ، غَيْرُ صَحِيْحَةٍ حيث القصةُ في سندها حَفْصُ بنُ سليم أَبُو مُقَاتِلٍ السَّمَرْقَنْدِيُّ "

وهو الأمر الذي أكده الحافظ ابن حجر في كتابه الميزان ، وأغلب الظن في اختلاق هذه الكذبة ، هو ترويج لثورات أهل الكوفة ضد حكم بني أمية .

أما عن القصة الحقيقية في خبر مقتل سعيد بن جبير كما أوردها ابن جرير الطبري رحمه الله، في " تاريخ الطبري " وابن كثير في " البداية والنهاية "

قال ابن جرير : وفي هذه السنة أي سنة ٩٤هـ ، قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير ، وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رتبيل ملك الترك ، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى أصبهان ، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه ، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها ، ثم كان يعتمر في كل سنة ويحج ، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري ، فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها، فقال سعيد : والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره ؟ وتولى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز ، فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود ، فتعلم منه خالد بن الوليد القسري ، فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ، ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وطلق ابن حبيب ، ويقال إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواما من أهل الشقاق ، فبعث خالد بهؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة وبعث بأولئك الثلاثة ، فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل ، وأما مجاهد فحبس فما زال في السجن حتى مات الحجاج ، وأما سعيد ابن جبير فلما أوقف بين يدي الحجاج قال له: يا سعيد ألم أشركك في أمانتي ؟ ألم أستعملك ؟ ألم أفعل ؟ ألم أفعل ؟ كل ذلك يقول: نعم حتى ظن من عنده أنه سيخلي سبيله حتى قال له : فما حملك على الخروج علي وخلعت بيعة أمير المؤمنين، فقال سعيد: إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة على ذلك وعزم علي ، فغضب عند ذلك الحجاج غضبا شديدا ، وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه، وقال له ويحك ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال: بلى، قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له

ثانية ، قال : بلى ! قال فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ يا حرسي اضرب عنقه.

قال: فضربت عنقه فبدر رأسه عليه لاطئة صغيرة بيضاء .

وقد ذكر الواقدي نحو هذا، وقال له: أما أعطيتك مائة ألف ؟ أما فعلت أما فعلت.
قال ابن جرير : فحدثت عن أبي غسان مالك بن إسماعيل ، قال: سمعت خلف بن خليفة ، يذكر عن رجل قال لما قتل الحجاج سعيد بن جبير فندر رأسه هلل ثلاثا مرة يفصح بها ، وفي الثنتين يقول: مثل ذلك لا يفصح بها .

" فهذه القصة هي الحقيقية لمقتل سعيد بن جبير.. ومع ذلك فقد اشتهرت بروايتها الموضوعة دونًا عن الحقيقية رغبة في الترويج لمظلومية الموالي " .

وهنا تساؤل حول طبيعة العلاقة التي كانت تربط الشيعة الرافضة بسعيد بن جبير ، والسبب وراء تعظيمهم له ، ورواياتهم الأعاجيب في ذلك ، حتى أن بعضهم عدَّه من الشيعة الداعين لمذهب آل البيت ، ومنهم من قال أنه كان يمارس التقية إلى أن حان وقت التشهير بالحقيقة !!، وهذا غيض من فيض مروياتهم المكذوبة ، ولسنا هنا بصدد إثبات صحتها أو نفيها ، لأن ما يهمنا منها تجريد الدوافع والغايات التي جعلتهم يحيطون شخصية مثل سعيد بن جبير بتلك الهالة من القداسة والتعظيم برغم أنه ليس الفقيه الوحيد من العلماء والقراء الذين شاركوا ابن الأشعث تمرده وحرضوا الناس على الخروج معهم .

وهنا لنا وقفة مع سياسة الشيعة الرافضة في نزاعهم الطويل مع بني أمية ، ودأبهم في الوقوف مع كل حركة مناوئة للأمويين ، وتأييد الخارجين عن سلطتها ، فكانوا يحاولون أن يصوّروا كلّ من دخل في قتالٍ أو فتنةٍ مع ولاةِ أمرِهِ ـ الأمويين أونوابِهِم ـ بمظهر الخارجين عن السلطة من باب الدعوة إلى مذهب أهل البيت ، موظفين تمردهم لصالح دعوتهم المناهضة للحكم الأموي ، كما هو الحال مع مالك الأشتر وابنه إبراهيم بن مالك الأشتر ، فأوضعوهم درجة الشهداء وألفوا في نصرتهم لآل البيت الأحاديث المنكرة ، وأقاموا لهم المراقد ، واختلقوا لسعيد بن جبير قبرا في واسط من العراق وبنوا عليه مرقدا ببنية كبيرة اخذوها مزارا تهب

إليه سنويا جموع الشيعة للزيارة والدعاء ، ومنهم من يمشي سيرا على الاقدام، وتأتي المواكب ويباشروا المسير التمثيلي مستعرضين الأحداث التي حصلت سعيد بن جبير إلى أن يصلوا المرقد .

مسلك ابن الأشعث في ثورته :

كان ابن الأشعث يتلهف ويطمح للسلطة ، فمع إعلان ثورته قام بخلع الحجاج ، وعندما وصل إلى فارس ورأى كثرة جموعه ، وازدياد تأييد الناس له . لم يكتف بخلع الحجاج ، بل وافق على خلع عبد الملك ، ثم سمى نفسه القحطاني و ناصر المؤمنين ، كما لقب من قبل الشاعرة بنت سهم بن غالب " بالمنصور عبد الرحمن بن الأشعث " .

وقد ضرب أعشى همدان على وتر حساس حينما ذكر ابن الأشعث بأمجاد أسرته ، وما كان لهم من الملك السابق فقال:

كم من أبٍ لك كان يعقد تاجه

بجبين أبلح مقول صنديدِ

لذا فقد صرح ابن الأشعث بعد انتصاره على جيش الحجاج في تستر بقوله : " أما الحجاج فليس بشيء ، لكننا نريد غزو عبد الملك " وأعلن في دير الجماجم أنه أعز مكانة وشرفا من آل مروان

وهذا ما أثار قلق الخليفة عبد الملك الذي كتب للحجاج يقول : " أسَما عدو الرحمن لدعائم دين الله بهدمها أم رام الخلافة أن ينالها "

تزويره لكتب الحجاج:

لما كتب ابن الأشعث لأميره الحجاج يخبره قراره بالاكتفاء بما ناله من الأعداء من أراضي وغنائم ، وتأجيل التوغل في الفتح إلى العام المقبل ، ساءته هذه الخطة ، وعدها من ابن الأشعث تسويفا وموادعة ، وكتب إليه يلومه ويعنفه ويقلل من قدره ويصفه بالجبن وحب المهادنة ، وأن ما قرره بشأن التوقف عن التوغل في أرض الأعداء ، كان سببه الجبن ، لا المكيدة والحرب ، وذلك لنفاذ صبر الحجاج واستعجاله ، وكان ذلك موقفه من قواده الذين كان يرسلهم للحروب أو لقمع الثورات ، ومن ذلك موقفه من المهلب بن أبي صفرة الذي كان يقاتل الأزارقة يستعجل في الحرب ويتهمه بالتسويف والتأخير لمصلحته الخاصة ، ومن ذلك أيضا رسالته إلى الجزل بن سعيد عندما كان يحارب شبيبا الخارجي التي استحثه فيها على السرعة في لقاء الأعداء، فتلك سياسته مع قواده وقد كررها مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فلم يكن ينوي التخلص من ابن الأشعث بإصراره على ذلك التوغل كما يذهب البعض ، وإن لم يكن على صواب فيما فعله معه .

وفي وصفه له في كتابه إليه ، إذ أنه أيقظ بكتابه هذا روح التمرد عند ابن الأشعث ، ودفعه إليه دفعا وخاصة أن هناك عوامل عديدة كانت تزين له القيام بالصورة والمطالبة بالسلطة .

أما جنوده ، فكان من السهل عليه أن يحرضهم سيما وأن لقسم كبير منهم أسبابهم التي تدفعهم إلى تأييد أية حركة على الدولة فعمل على تحريضهم لإعلان العصيان، وذلك أنه كتب رسائل مزيفة فيها أوامر من الحجاج إليه بقتل بعض أشراف العراقيين ، مما أدى إلى نقمة هؤلاء على الحجاج واستجابتهم لتمرد ابن الأشعث .[1]

خلعه للخليفة وموادعة للزنبيل ملك الترك :

ولما أظهر عبد الرحمن خلع الحجاج ، وادع الزنبيل ، وكتب بينه وبينه كتابا ،

---

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ص325
الفتوح لابن أعثم ج2 / ص100

وعاهده ألا يرزأ منه شيئا ، فإن ظفر بالحجاج لم يسأل الزنبيل خراجا أبدا ما بقي ، وإن انتصر عليه الحجاج لجأ ومن معه إلى الزنبيل فمنعه، وعين عبد الرحمن خلفاء لنفسه في بست وزرنج حاضرتي سجستان ، ثم تحرك بالجيش في سنه 81 هـ ، وانضم إليه في طريقه جند من الكوفة والبصرة كانوا في حاميات الأمصار حتى إذا صار ابن الأشعث بجيشه إلى فارس؛ قال الناس بعضهم لبعض: "اذا خلعنا الحجاج عامل عبدالملك، فقد خلعنا عبد الملك، واجتمعوا إلى ابن الأشعث ، فكان أول من خلع عبد الملك وخلعه الناس وبايعوا لابن الأشعث على كتاب الله وخلْع أئمة الضلال ، ولم يكن ابن الاشعث بحاجة إلى أن يدفعهم لذلك، بل هم الذين دفعوه، ولم يستطع أن يتحلل من سلطان أولئك الجند الذين قد ناداهم ، وأقبل الجيش مثل السيل المنحط من علٍ ليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره في إزاحة الحجاج وإخراجه من العراق .

وأما الزنبيل فله وقفة أخرى مع ابن الأشعث حين أنقذه مرة أخرى ، وهذه المرة من خيانة واليه على بست عياض بن هميان ، حين حصره جند الحجاج بقيادة عمارة بن تميم اللخمي ، الذي غلق الأبواب دونه ووثب عليه فأوثقه ، وأراد أن يسلمه للحجاج ليأمن بذلك عنده ويتخذ به عند الحجاج مكانا ، شأنه في ذلك شأن صاحبه والي زرنج ، وعند ذلك جاء الزنبيل الذي أراد أن يتقرب إلى الحجاج به ، فلجأ إلى سياسة التحايل وهدد عامل بست بقتله وقتل جميع من أصاب ابن الأشعث بسوء ، وخلصه من الأسر وتعهد له بأن يمنحه حق الالتجاء عنده إذا احتاج إلى ذلك ، وأخذه معه إلى كابل هو ومن معه من الفلول الكثيرة وأكرمه وعظمه تعظيمًا كبيرا وأما بعد وفاة الحجاج فقد امتنع الزنبيل في سجستان عن دفع الإتاوة (الخراج) ولم يتحرج من أن يصرح بمقدار استصغاره لشأن من جاء بعد الحجاج . [1]

روايات مقتل ابن الأشعث :

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ص400

عندما وجد ابن الأشعث ان الأمور التي تحيط به تسير ضده ، ورأى ان عماله قد تنكروا له وانفضوا عنه ، قبل بجوار الزنبيل الذي بدا له أقل الموجودين خطرا ، ولكنه في الباطن كان يعمل لنهايته ويسعى للإيقاع به ، وقد حذر البعض وعلى رأسهم علقمة بن عمرو ابنَ الأشعث وأبدى تخوفه عليه من الزنبيل ، إلا أنه لم يسمع له .

فبعد هزيمة ابن الأشعث في مسكن اتجه نحو الشرق وأشار عليه علقمة بن عمرو الأودي بعدم الذهاب إلى ملك الترك ، علما منه أن الحجاج لابد أن يتتبعهم مرغبًا زنبيل تارة ومهددا له أخرى حتى يسلمهم ، ورأى أن يدخل هو ومن معه مدينة فيتحصنون بها ، ويمتنعون فيها ، ومن أتاهم قاتلوه ، فإن ماتوا ماتوا كراما ، لكن ابن الأشعث أبى عليه ذلك ، ودعاه للجوء معه إليه ، فأبى ذلك عليه علقمة ، وفارقه في خمسمائة كانوا معه ، تعهدوا على الامتناع على الحجاج وجعلوا عليهم ومودودا البصريِّ أقاموا حتى قدم عليهم عمارة بن تميم اللخمي ، وكان الحجاج قد أرسله في أثر عبد الرحمن ، فقاتلوه وامتنعوا عليه حتى أمنهم فخرجوا إليه فوفى لهم بالأمان ، أما عبد الرحمن فقد سار إلى ملك الترك ، ولم يكن الحجاج ليتركه ، فكتب الكتب الكثيرة بشأنه إلى زنبيل بطلب عبد الرحمن ويحلف له بالله الذي لا إله الا هو إن لم يرسله ليبعثن إليه ألف ألف من الرجال المقاتلة ، وأنه قد أرسل عمارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفا من فرسان أهل الشام لم يخالفوا طاعة ، ولم يخلعوا خليفة ولم يتابعوا إمام ضلالة يحبون الحرب للحرب .

أما الأخير فكان أخوف من بطشة الحجاج ، وأحرص على ملكه من أن يضيعه في سبيل ابن الأشعث ، فأخذ نصيحة رجله مستشاره عبيد بن أبي سبيع التميمي الذي خوفه من الحجاج وأشار عليه بأن يدفع له عبد الرحمن مقابل إسقاط الخراج عنه سبع سنين فقال له الزنبيل إن فعلت ذلك فإن لك عندي ما سألت ، فكتب عبيد إلى الحجاج أن زنبيل لا يعصيه أبدا ، وأنه لن يدع زنبيل حتى يبعث إليه بابن الأشعث ، وخرج ابن أبي سبيع إلى عمارة مختفيا حتى لا يسمع بخروجه ابن الأشعث فيوجس خيفة ، فيهرب ، وتفاوض معه في شأن ابن الأشعث وتحريضه للجيش ، وأسفرت المفاوضة عن جُعْلٍ يأخذه ابن أبي سبيع لنفسه قدره مليونا من الدراهم والكف عن زنبيل .

وكتب عمارة بذلك إلى الحجاج ، فرد الحجاج قائلا : "اعطي عبيدا وزنبيل ما

سألاك ، فاشترط زنبيل ألا تغزى بلاده لمدة عشر سنين وأن يؤدي بعد العشر سنين تسعمائة ألف درهم كل عام ، ويروي البلاذري في فتوح البلدان ص ٤٠٧ أن المدة تسع سنين أو سبع سنين . فاحضره زنبيل ومعه ثلاثين من أهل بيته وقد أعد لهم الجوامع القيود ، فوضع في عنق عبد الرحمن جامعة وفي عنق القاسم بن الأشعث جامعة ، وقيد الباقين ، وقال لأصحاب ابن الأشعث تفرقوا حيث شئتم وأرسل ابن الاشعث ومن معه إلى عمارة ولما قرب ابن الأشعث من عمارة ألقى نفسه من فوق قصر بالرخج فمات .

وبمقتل ابن الأشعث رأس الفتنة ومتولي كبرها ، تفرق أنصاره في الأمصار وقرت عين الحجاج وخليفته بالاستراحة من تمرد هز الدولة وكاد يودي بالدولة الأموية ، سيما وقد خرج فيه أهل العراق مجمعين رأيهم على خلع الخليفة ومحاربة عامله الحجاج بعد ثلاث سنين تعرض فيها للخلع مرة وللهلاك مرات .

وقد تعددت الروايات حول ما إذا كان ابن الأشعث مات منتحرا فعلا مفضلا الموت على الوقوع في يد الحجاج كما ذكرنا ، أو أنه توفي بسبب مرض السل الذي أصابه في أيامه الأخيرة سنة ٨٥هـ ، وأن الزنبيل كان قد احتز رأسه وأرسل به إلى عمارة ، بعد أن كان قد مات وأريد دفنه .

إلا أن الواضح أنه توفي بسبب مرض السل الذي أصابه في أيامه الأخيرة وكان ذلك سنة ٨٥ هـ [1]

موقف الدولة الأموية من تمرد ابن الأشعث

---

[1] الطبري ج5 / 188
الكامل لابن الأثير ج4 / ص95
ابن خلدون ج3 / ص52
ابن شاكر ج5 / ص164
أنساب الأشراف للبلاذري ص308

أما المهلب بن أبي صفرة ، و كان قائدا لحروب الدولة العربية الأموية ضد الخوارج ، فلم ينضم المهلب الذي كان على حرب الأزارقة لابن الأشعث في ثورته ، فرأى موقعه إلى جانب السلطة ، ومن هذه الرؤية فضل عدم الاحتكاك بابن الأشعث الذي أعلن الخروج عن الطاعة في ظل الظروف التي تحيط به .

ولما كان المهلب يعلم أن ابن الأشعث قد انطلق بالجيش لأجل رفع كلمة الله والجهاد في سبيله ، فقد حاول أن يثني ابن الأشعث عن تمرده ورأى أن من الواجب أن يوجه إليه النصيحة ويحثه على الدخول في الطاعة ، و يتراجع عما كان قد عقد العزم عليه ، منبها إياه إلى أنه بثورته ينكث عهد البيعة ويفرق كلمة الأمة ويستعمل قوته هو ومن معه في قتال المسلمين ودولتهم بدلا من استعمالها في قتال المشركين ودولتهم ، وبعث إليه بكتاب يبين له فيه مدى خطورة ما سيقوم به من تصرف ، ويوصيه بالمحافظة على دماء المسلمين الذين معه كما نهاه عن مفارقة الجماعة او حتى التفكير في نقض البيعة لخليفة المسلمين .

ولكن ذلك لم يجد نفعا ، وغلب الكبرياء على الإيمان والأنفة على واجب الخضوع للدولة ، وعلى الرغم من أن ابن الأشعث لم يرد بجواب على المهلب ، إلا انه من المحتمل أن يكون قد بعث إليه بموقفه الصريح من ذلك ولو مشافهة ، ويبدو ذلك من كتاب المهلب للحجاج حرصا منه على عدم تلاقي سيوف المسلمين بعضها مع بعض ، حيث بدأت الفتنة تلوح في الأفق ، فبادر إلى الاتصال بالحجاج مبديا رأيه في هذا الخلاف ، وطلب منه في كتاب بعث به إليه : " ألا يتعجل قتال جند العراق الذين مع ابن الأشعث ،وأن يتركهم حتى يتبدد حماسهم بلقائهم بأهليهم ،وعندها سيغيرون من رأيهم ،ويتراجعون عن فكرة القتال من تلقاء أنفسهم ،وبهذا التصرف يقضي على الفتنة قبل استفحال خطرها .

ثم قرن ذلك الكتاب بتحذير الحجاج قائلا له : إنهم قادمون إليك وهم مثل السيل المنحدر من الجبل ، وليس يرده شيء حتى ينتهي إلى قراره .

ويبدو أن المهلب بهذه المشورة قد فهم سبب التفاف جند العراق حول ابن الأشعث ، وخلع الحجاج ، وهو محاولة الرجوع السريع إلى العراق ، كما أكد على أن الهدف من تحرك الجند السريع هو اللقاء بالأهل فقط ، ولا علاقة له بقتال الحجاج ، مما

دفع المهلب إلى سرعة مكاتبة الحجاج والإفصاح عن حقائق لم يكن قد اطلع عليها ، إلا أن الحجاج لم يعمل بنصيحة قائده المهلب ، وفضل التصدي لهم بنفسه قبل أن يصلوا إلى العراق وأصر على معاقبة ابن الأشعث والمتمردين معه

وهذا يعني أن محاولات المهلب مع ابن الأشعث والحجاج باءت بالفشل[1]

موقف الخليفة عبدالملك من خروج ابن الأشعث

بلغت ثورة ابن الأشعث من خطرها على الدولة مبلغا أثار قلق عبد الملك بن مروان ، ومما لا شك فيه أنه كان حريصا على سلامة أرواح الجند من الجانبين العراقي والشامي ، لذا عندما بلغته أخبار تحركات ابن الأشعث اغتم غما شديدا ، واستشار خالدا بن يزيد فهون عليه الأمر وطمأنه قائلا : " لا تخف يا أمير المؤمنين ما لم يأتك الأمر من قعر مرو ".

وفي محاولة منه لتدارك الموقف على أهل العراق ، أرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك على رأس جيشين من أهل الشام وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج عن ولاية العراق كون شدته معهم ربما هي أحد الأسباب في التفافهم حول ابن الأشعث ، وأن تجرى عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء ويكون عليه واليا ما دام حيا .

ويضيف ابن أعثم شرطين آخرين وهما :

أ - رجوع جند الشام من العراق إلى ديارهم

ب - ولا يولي عليهم إلا من يحبون

---

[1] تاريخ الطبري ج6 / ص 366
الكامل لابن الأثير ج4 / 200
البداية والنهاية لابن كثير ج9 / ص38

فإن قبلوا ذلك عزل الحجاج عنهم ، وإن أبوا فللحجاج القيادة العليا في محاربة الثوار ، إلا أن الأخير كتب لعبد الملك ينبهه إلى غدر أهل العراق ، وسابق أعمالهم مع عثمان ، محاولا ثنيه عن قراره في عرضه ، ولكن عبد الملك أصر على عرض الصلح على أهل العراق ، فكان حرصه على دماء المسلمين أهم وأعظم عنده من ولاية الحجاج أو إرضائه ، ويبدو أن عرض الخليفة قد راق لابن الأشعث ، وكان يرى فيه فرصة يجب انتهازها والموافقة عليها

وأراد أن ينصح أهل العراق ويقنعهم بالقبول ، إلا أنه كان لهم رأي آخر ، ففسروها على أنها مرحلة ضعف تمر بها الدولة الأموية ، ويجب أن يستغلوها.

فثاروا وخلعوا عبد الملك من جديد ، و أصروا على موقفهم ولم يتراجعوا عنه ، وأجابوه على عدم الموافقة ، إذ كانوا يأملون أن ينهزم أهل الشام وشيكا بعد ما لحقهم من ضيق وضنك ومجاعة .

وهذا يفهم من قولهم : " إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذوو العدد الكثير " .

ولكنهم أخطؤوا التقدير، ذلك أن أهل الشام ثبتوا ثبات المستميتين .

ومن هذه العروض يدرك الناظر أن الخليفة كان على بينة مما يدور في أرض العراق من سياسة الحجاج التي كانت تقوم بالأساس على الشدة والغلظة من أجل إخضاع الخارجين عليه ، ومع ذلك فقد استبقاه لما عرف عن سكانها من أنهم إذا ولي عليهم رجل ضعيف ، خرجوا عن طاعته ، وإن كان العكس خضعوا له وأطاعوه ، فكان مطمئنا إلى تلك السياسة مع علمه بوجود تذمر من معظم فئات الشعب ، وأما عن عرضه تنصيب ابن الأشعث واليا على أرض العراق فكان الغرض منه تسكين الفتنة مؤقتا ، وخاصة حين رأى أن الأمور تطورت ، وتحول

أهل العراق إلى تيار من الغضب والسخط ، ثم بعد هدوء العراق يعمل على خلعه والتخلص منه بأية طريقة وهذا ما سيحدث بالفعل. [1]

بناء الحجاج لمدينة واسط

ومما ترتب على ثورة ابن الأشعث بناء الحجاج لمدينة واسط ليجعلها مقرا لجند أهل الشام ، وقد عزى الطبري دواعي بناءها ليمنع ما قد يحصل من اعتداءاتهم على سكان المدن الأخرى ، وقد أكد بعض المحدثين على هذه الناحية ، وعلل كثير منهم إنشاء المدينة ، على أنها بنيت لإقامة جند الشام بصورة عامة .

بينما ذكر وولهوزن أن السبب الحقيقي في إسكان جند الشام في واسط ، لم يكن لتلافي ما قد يركبونه من مفاسد في الكوفة والبصرة ، وإنما هو رغبة الحجاج في أن يعزل جند الشام عن أهل العراق ، كيلا يتأثروا بهم ، وليكونوا أداة طيعة له ويسكنه ، والحقيقة أن فكرة إقامة جند الشام في مدينة خاصة ، لم تكن هي المبرر الوحيد لبناء المدينة ، فهناك أسباب إدارية ،وعسكرية ،وإصلاحية ، أكثر أهمية من ذلك

فمن الناحية الإدارية ، رأى الحجاج أن وجوده في أحد المصرين بعيدا عن المصر الآخر ، لا يمكن أن يكون عمليا ، فأراد أن يكون قريبا من الاثنين في آن للسيطرة السريعة على ما قد يحدث فيهما من أمور ، فاختار موضع واسط لهذا السبب ، وكتب إلى الخليفة يستأذنه ببناء مدينة فيه .وهكذا أصبحت واسط " مركزا للإشراف على إدارة المنطقة التي حولها .

ولا يمكن إغفال الأسباب العسكرية في بناء المدينة ، لأن اختيار موضعها المتوسط بين مدن العراق ، جعلها حصنا في منتصف الطريق ، كما أن موقعها المناسب في سهل مروي جيدا بين دجلة والفرات جعلها مركزا عسكريا رئيسا للإمبراطورية .

---

[1] تاريخ الطبري ج6 / ص347
الكامل لابن الأثير ج4 / ص204

ويذكر ياقوت أن الحجاج بعد فراغه من حروبه ، لم يتمكن من الإقامة في الكوفة ، لشعوره بمللهم منه وبعضهم له ، لهذا فهو قد فكر ببناء مدينته . وقد أدرك بعض الدهاقين أهمية الموقع الذي اختاره الحجاج ، فحاولوا عبثا أن يثنوه عنه ، لكنه عرف قصدهم ، فأصر على المكان .

ثم إن هذه الموضوعية في اختيار الحجاج لموقع المدينة ، تجعلنا نرفض الروايات التي تعزي موافقة الحجاج على موضع المدينة ، إلى إيمانه بالأساطير ، واعتقاده بالخرافات .

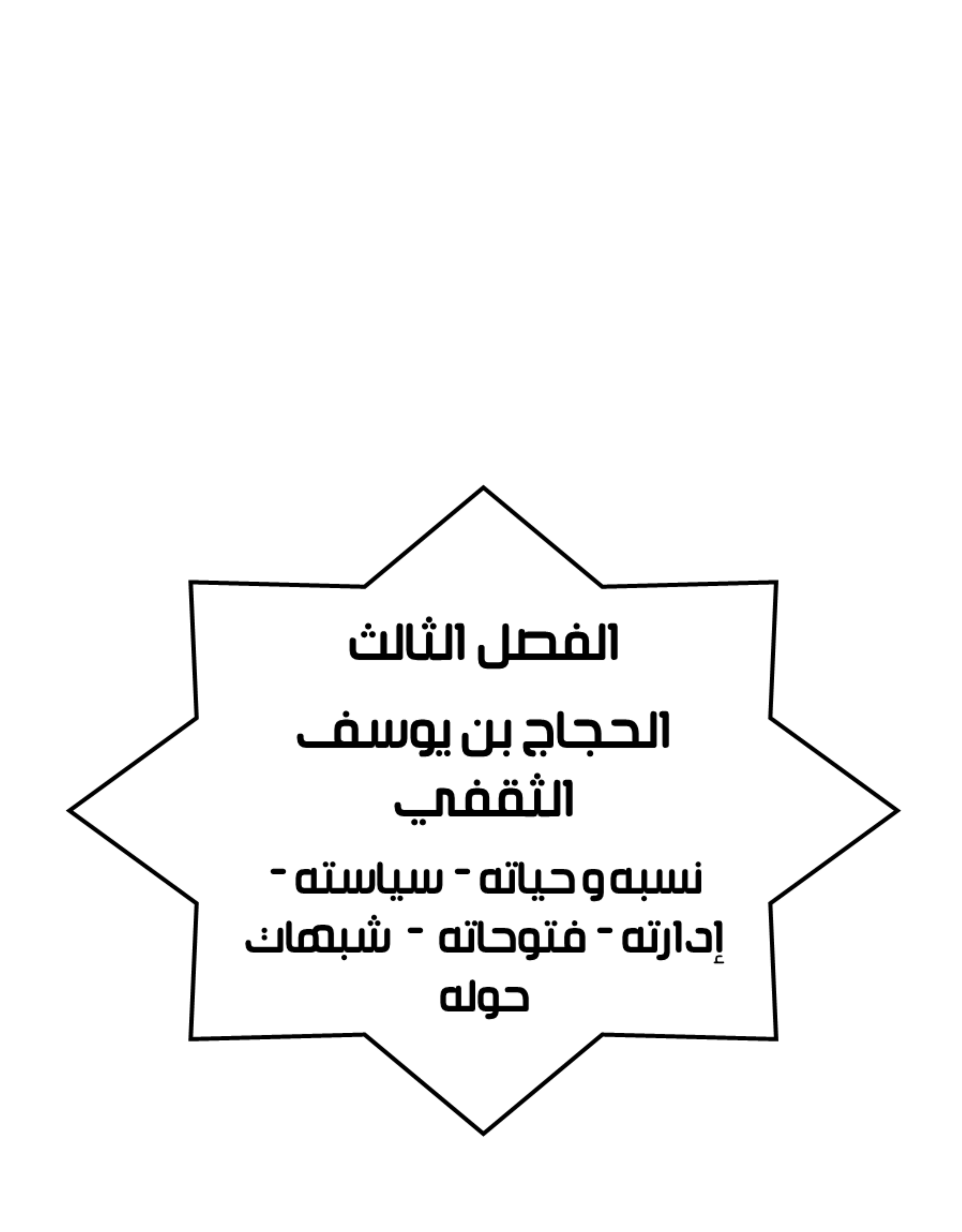
بنى الحجاج المسجد والقصر في الجانب الغربي ، ثم وصله مع الجانب الشرقي بجسر من السفن ، وقد أسكن فيه احدى زوجاته وأهلها . كما نقل إلى المدينة بعض وجوه أهل الكوفة والبصرة ، إضافة لمن معه من أهل الشام ،ونقل إليها أيضا جماعات من أهل بخارى ، والذين كانوا يسكنون البصرة منذ أن جلبهم عبيد الله بن زياد ، وقد منع النبط من دخول المدينة ، وقال : " لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة "

كما منع أهل السواد من السكنى والمبيت فيها ليلا ، ولكنه سمح لهم بدخولها نهارا لقضاء حوائجهم .

وكان حرس الأبواب هم المكلفين بتنفيذ هذه الأوامر ، ومع هذا فقد كان بإمكان السوادي أن يبيت في المدينة خاصة إذا كان متواطئا مع أحد من أهلها .

ويستفاد مما ذكره أبو الفرج الأصبهاني أن أحدا لم يكن يدخل واسطا إلا بعد إذن الحجاج وكان هذا ينطبق حتى على العرب ، ونقل مقره من وسط الجماعة إلى مركز قيادة حربي ، فأبان بذلك عما يشعر به من أنه في بلاد معادية وأخرج الحكومة عن الأساس الديني الأبوي الذي نشأت عليه وأقامها على القوة في صورتها الصريحة ، ولم يكن هناك سبيل غير ذلك إذ كان لابد من المحافظة على

سيادة بني أمية على العراق وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث ، سيما وقد أصبح شرق الدولة كله تحت سلطتها..



الفصل الثالث

الحجاج بن يوسف الثقفي

نسبه وحياته - سياسته - إدارته - فتوحاته - شبهات حوله

الحجاج بن يوسف اسمه ونسبه وحياته الشخصية

يعود أصل الحجاج إلى ثقيف، فهو الحجاج بن يوسف بن الحكم ابن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعيد بن عوف ابن ثقيف ، ولد في الطائف 41 هجري ، فنسبه وأصله يرجع إلى ثقيف ، إلا أن أمعن أعداءه والكارهين له وعلى رأسهم الشيعة أمعنوا في محاولتهم الحط من هذا النسب ، وارجاعه إلى ثمود على اعتبار أن قسيا كان بالأصل عبدا من الذين نجوا من قوم ثمود ، ولذلك يقال أن ثقيفا وهو لقب قسي بقية ثمود [1]

وقد وعى الحجاج حملته وتصدى في مناسبات كثيرة للرد على هذه التهمة ، محاولًا نفيها والتقليل من أهميتها ، وفي أحيان أخرى كان يفترض صحة هذه التهمه مبينا أنها مفخرة لا مثلبة من المثالب .

أما والده فكان رجلا فاضلا ، ونال التقدير والثناء من المؤرخين ، فيذكر ابن خلدون في مقدمته : " أنه كان من سادات ثقيف وأشرافهم " .

ويقول ابن كثير في البداية والنهاية : " أن أبا الحجاج كان ذا وجاهة عند الخليفة ، وأنه كان ذا فراسة صحيحة ، ووصفه أيضا بأنه كان رجلا نبيلا جليل القدر "

ولا يوجد ما ينقض هذا القول عند بقية المؤرخين ، اللهم إلا في أخذهم عليه وعلى ابنه الحجاج يوم هزما في معركة الربذة التي كانت بين جيش مروان بن الحكم وجيش عبدالله ابن الزبير، وأنهما كان معلمين بالطائف ، وفيما عدا ذلك لا يوجد ما

[1] أنساب الأشراف للبلاذري ج1 / ص25

يشين سيرة يوسف بن الحكم ، وفي فتوح مصر وأخبارها ، يذكر ابن الحكم أن يوسف بن الحكم كان قد جاء إلى مصر هو وابنه مع مروان بن الحكم ، ويقال أنه تولى بعض الولايات لعبد الملك بن مروان ، فلم يكن من الناس المغمورين ، وإنما كان له نصيب في الحياة العامة ومشاركة فعلية فيها ، ما دفع مصعب بن الزبير إلى وضع جائزة كبيرة لمن جاء بابن الحكم وابنه أو أحدهما بعد دخوله المدينة إثر معركة الربذة ، فلولا مكانتهما ودورهما القيادي ما حازا اهتمام خصميهما دون غيرهما من الرجال .

وأما أمه فقد اختلفت الروايات عنها، فهي عند البلاذري الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود بن معتب ، بينما يسميها ابن حزم فريعة ، واختلف في الأشخاص الذين تزوجتهم قبل يوسف الثقفي ، فيذكر الجاحظ ، البلاذري ، وأبو الفرج الأصبهاني أن زوجها الأول كان المغيرة بن شعبة ولسبب تافه لم يترو في طلاقها ، ثُمَّ إنه ندم على ذلك ، فخلف عليها بعده يوسف أبو الحجاج، وكان أن قال له " إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف ، فتزوجها فإنها تنجب لك ، فتزوجها فولدت له الحجاج " [1] .

وأما الروايات المتأخرة نسبيا تعكس واقع الأمر وتجعل نصيحة المغيرة ليوسف بن الحكم على الشكل التالي : " تزوجها فإنها لخليقة أن تأتي برجل سوء فتزوجها " [2]وقد وردت في تهذيب ابن عساكر ٤٩/٤ ، وفي البداية والنهاية ١٨/٩ ، إلا أنه يضع عبارة : " بأن تأتي برجل يسود " بدلا من " برجل سوء " وهنا يلاحظ آثار الوضع في الرواية الأخيرة فمن غير المعقول أن ينصح رجل بأن يتزوج امرأة لتأتي له برجل سوء، فيتزوجها !!

وأما في رواية المسعودي (مروج الذهب ٦٧/٣) فزوجها الأول هو الحارث بن كلدة ، ثم خلفه عليها يوسف بن الحكم .

---

[1] العقد الفريد لابن عبدربه ج5 / ص13

[2] تهذيب ابن عساكر ج4 / ص49

البداية والنهية لابن كثير ج9 / ص18

وقد أحاط المؤرخون حياته الأولى بجو من الأساطير تمادى بعض الكتاب فيها إلى ما قبل ميلاده ، للاستدلال على أنه ذلك المجرم الذي رضع الدماء منذ الصغر ، فكانت مرويات تثبت لمن يمر عليها أنها مجرد خرافات وأساطير لا يقبلها ذو عقل .

ومن هذه الاساطير ما صوره المسعودي من ولادة الحجاج بصورة بشعة فيجعله وإلغاء بالدماء من اليوم الأول ولادته ، وأنه لم يقبل ثدي أمه إلا بعد أن ما لطخ بالدماء . [1]

وأن الشيطان قد تصور لهم بصوره الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب، زوج أمه السابق بحسب رواية المسعودي ، فقال لهم : اذبحوا له جديا اسود وأولغوه دمه وفي اليوم الثاني افعلوا به كذلك ، فاذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وأولغوه دمائه ، ثم اذبحوا له أسود سالقا وأولغوه دمه واطلوا به وجهه ، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع .

ويعقب المسعودي على هذه الاسطورة بقوله : " فكان بعد ذلك لا يصبر عن سفك الدماء وارتكاب الأمور لا يقدم عليها غيره ولا يسبق إليه أحد سواه " .
ويبدو أنه مستغل اهتمام العرب برواية الاعمال الخارقة من ناحية وكرههم لحاكم العراق من ناحية أخرى ، كل ذلك أوحى لكتابهم هذه الأسطورة حول ولادته ، إذ كانوا يريدون أن يضعوا ابليس الى جانب مهده فكان .

أما نشأته فقد نشأ الحجاج في الطائف وتربى في بيئة تحيط بها البداوة من كل جانب ، ولا تسري إليها لوثة المدن، إذ تميز أهلها بحضور البديهة وحسن التفكير ، فكان الحجاج لغويا دقيقا في لغته فصيحا بليغا في خطابته ، حتى قال عنه عمرو بن العلاء: " ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري" وخطبه في الكوفة والبصرة دالة على ذلك .

وقد حفظ القران في كنف أبيه وأجاده ، فكان عالما بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث حافظا لكثير من أشعار العرب وأيامهم ، كثير الاستشهاد بذلك في المقامات

---

[1] مروج الذهب المسعودي ج3 / ص67
(المسعودي مروج الذهب) وابن خلكان و وفيات الاعيان ابن كثير والعمادي شجرات الذهب في اخبار من ذهب وصاحب غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة والعينين عقد المجان في تاريخ اهل الزمان .

المختلفة ويرجع ذلك إلى رحيله إلى مكة كعبة الفصحاء والعلماء والشعراء ، واحتكاكه بثلة منهم ، فازدهرت مواهبه كأثر للبيئة الجديدة التي عاش فيها ، حتى قيل عنه: " أن عقول الناس كانت تقرب بعضها من بعض إلا ما كان من عقل الحجاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح عقول الناس " .

وقد سمع التفسير عن ابن عباس وروى الحديث عنه وعن أنس بن مالك وسمرة بن جندب وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري وعبد الملك بن مروان ، وقد روى عنه موسى بن أنس بن سعيد بن أبي عروبة ومالك بن دينار وثابت البنان وحميد الطويل والأعمش والربيع بن خالد الضبي وعوف الأعرابي وقتيبة بن مسلم وغيرهم ، وكان الحجاج من رواة الحديث ، إلا أن علماء المصطلح لا يوثقونه آخذين عليه أمورا أرجف بها المعادون له وليس لضعف في مكانته العلمية ، حتى قال عنه بعض علماء الحديث : " فلولا ما ارتكب من العظائم والفتك لمشي حاله " [1]

وأما الروايات التي تشير إلى أن الحجاج كان يمتهن الدباغ أو تعليم الصبيان ، وبالرغم من عدم وجود معلومات أكيدة حول صحتها ، إلا أن بعض المؤرخين تلاقفوها بينهم مستندين إلى ما جاء على لسان الشعراء في ذم الحجاج ، واستنتجوا من شعرهم معلومات عن حياته، وعن المهن التي مارسها هو آبائه ، فمنهم قائلون: بأنه كان دباغا وأنه كان فقيرا مقترا استندوا إلى أبيات هجاه بها كعب الأشقري [2]

ويجوز أن الشاعر استغل اشتهار مدينه الطائف بأنها بلد الدباغ فوصم الحجاج بأنه كان دباغا على اعتباره من أهل تلك المدينة ، ولا يدل هذا بالضرورة على أنه كان يمارس مهنة الدباغة فعلا .

وهناك آخرون ينقلون أن آباء الحجاج كانوا ينقلون الحجارة بالطائف ويحفرون الآبار والمناهل بأيديهم استنادا إلى رسالة بعث بها عبد الملك إلى الحجاج على أثر المعاملة التي عامل بها الأخير أنس بن مالك، وورد ما شابه ذلك أيضا في الكتاب الذي نسبه ابن عبد ربه إلى عبد الملك بن مروان عندما هم بعزل الحجاج .

---

[1] الذهبي ميزان الاعتدال / ص 466
[2] الأغاني للأصفهاني ج13 / ص58

على أن أهم ويكاد يكون أدق ما يذكره المؤرخون عن حياة الحجاج أنه كان يشتغل معلما بالطائف فقد أورد ذلك عدد من الشعراء الذين عيروه بهذه المهنة وإن كان قد امتهن التعليم , فأي عيب ومنقصة في أن يكون المرء معلما ولاسيما لكتاب الله وآيه ، على ما لها من الفضل العظيم جزيل الأجر!! .

وقد ادرك بعض المؤرخين كابن نباته هذا تهور أقرانه من المؤرخين في النقل وإسراعهم إلى التسليم بصحة ما جاء به دون الأخذ بنظر الاعتبار كثرة أعداء الحجاج ومقدار ما وضع من روايات التي غرضها الحط من شأنه.. فتكلم على موضوع هذه الأشعار ، وعاب على إنكار بعض الرواة لممارسة الحجاج لمهنة التعليم ، وقال : " وبعض الرواة ينكر هذا القول ويقول: هذه من أكاذيب الشعراء ، ويزعم أن الحجاج لم يزل في كنف أبيه وكان أبوه رجلا نبيلا جليل ، ومن المؤرخين من يعد الحجاج بن يوسف من أشراف المعلمين وفقهائهم ، ومنهم من يعتبره هو وأباه من سادات ثقيف وأشرافهم ، وأن تعليمهم القران لم يكن لهما حرفه للمعاش وكسب الرزق ، بل هو شرف لهما ، لأنهما من أهل الأنساب والعصبية يعلمان كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي .

اما عن حياته الخاصة وزوجاته فقد تزوج الحجاج عددا من النساء احداهن أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب والتي تزوجها أثناء ولايته المدينة ، وفي هذا الزواج دليل قوي على أن العلاقة بينه وبين آل أبي طالب لم تكن سيئة إلى الحد الذي صورته لنا بعض الروايات المناوئة للحجاج ، وبالرغم من عدم استمرار هذا الزواج ، إلا أن علاقة الحجاج مع عبد الله بن جعفر لم تتغير بعد طلاقه لابنته ، فقد كانت صلات الحجاج وهداياه تصل بانتظام في كل شهر إلى عبد الله وابنته حتى لحقا بربهما .

ومن نسائه أيضا هند بنت اسماء بنت خارجة ، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة ، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد وأمة الله بنت عبد الرحمن ابن جرير بن عبد الله البجلي ، وأم أبان بنت النعمان ، ويقال أنه قد طلق هند بنت اسماء وهند بنت المهلب ولكن الروايات تختلف في أسباب طلاقه .

ولكن بشكل عام كانت علاقة الحجاج مع نسائه علاقة طبيعية جدا يسودها الود والتقدير والإحسان .

وأما أبنائه ، فمحمد وأبان وعبد الملك وسليمان والوليد ويوسف وقد توفي في حياته يوسف ومحمد .

نظرة في سياسة الحجاج :

استطاع الحجاج أن يحافظ على سلطانه في العراق مستندا إلى حاميته من جيش الشام ، وكان له الأثر في توجيه السياسة هناك ، وكان قد استفاد في توطيد مركزه وسلطته خاصة في أول قدومه العراق من الخصومات والتنافس الذي كان شائعا بين القبائل، ويبدو أنه استفاد من طبيعة بعض أهل العراق في نظرتهم القلقة غير المستقرة إلى الأمور السياسية ، وعدم ثباتهم على ما يقررونه ، فضرب بعضهم ببعض، وهذا يرجح الرأي القائل أن الحجاج لم يظفر بمن ناوئه إلا بمساعدة من بقي معه من أهل العراق .

ولا غرو في اتباعه سياسة قائمة على الشدة والصرامة بهدف القضاء على الفتن والثورات التي جوبه بها من قبلهم ، أما في الظروف الطبيعية ، فقد كان الاعتماد على العقل لا العاطفة، وتقليد الوظائف للأكفاء طابعا مميزا لسياسته في العراق بصورة عامة .

ويظهر أثر تلك السياسة جليا من خلال الخطب التي كان يلقيها والتصريحات التي كان يدلي بها .

فقد كتب إلى الوليد الأول بن عبد الملك ، رسالة يشرح له فيها سيرته وسياسته في العراق جاء فيها: " إني أيقظت رأيي وأنمت هواي ، فأدنيت السيد المطاع في قومه،

ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسما يعطيه حظا من نظري ولطيف عنايتي ، وصرفت السيف إلى النطف المسيء والثواب إلى المحسن البريء ، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب " .

لقد توصل الحجاج إلى هذه التدابير بعد مرور أكثر من 10 سنوات على حكمه للعراق ، فكان الحزم والشدة من المقومات الأساسية التي اعتمدها في سياسته مع المخالفين ، وهو نفسه كان يرى أن الناس هابوه بسبب جرأته على الدماء وقيامه بأعمال كان يتهيب منها الناس ، إلا أنه مع ذلك كان مقتنعا أنه فعل ما فعل لأنه يريد أن يفرض طاعته ويبسط سلطانه على الناس ، وكان يرى أن ذلك عنده خير مما لو كان له جبلان من ذهب أنفقهما في سبيل الله ، ولقد كان للطاعة عنده أهمية عظيمة جعلته يستحل دماء المخالف ، والسلطان الضعيف في نظره سلطان مشؤوم ، لأن سلطانا تخافه الرعية خير لها من سلطان يخافها، وقد كان في سياسته أن ينال بالعقوبة كل من يحاول المخالفة أو العبث بالأمن خاصة من الشخصيات الكبيرة ، وكان يرى أنه بموقعه الحازم من هؤلاء الكبار سيجعل عامة أهل العراق يخشون بأسه لعلمهم أنه سيكون بالغلظة والعقوبة إليهم أسرع ، ومع هذا فقد كان يعفو عمن يعترف بذنبه ولا يصر عليه، سريع الرجوع إلى الحق إذا تبين أنه مخطئ ، إذ لم لم يستسغ أن يعاقب أحدا بجريرة الغير، ولا بريئا بجريرة المذنب .

وكان من سياسته الابتعاد عن الفتنة ، وإزالة كل ما يهيجها ، فعندما رأى كف المختار معلقه في الكوفة أمر بإزالتها ، وقال هذا يهيج الفتنة نحُّوها وغيبوها .

إصلاحات الحجاج :

في الفترة التي قضاها الحجاج في ولايته على العراق قام بجهود إصلاحية عظيمة ، ولم تشغله الفترة الأولى من ولايته عن القيام بها ، وشملت هذه الإصلاحات النواحي الاجتماعية والصحية والإدارية وغيرها .

فأمر بعدم النوح على الموتى في البيوت ، وبقتل الكلاب الضالة ، ومنع التبول أو التغوط في الأماكن العامة ، ومنع بيع الخمور ، وأمر بإنشاء الجسور ، وأنشأ صهاريج لتخزين مياه الأمطار ، وأمر بحفر الآبار في المناطق المقطوعة ، ومنع هجرة أهل الريف إلى المدن .

ومن أعماله الكبيرة بناء مدينة واسط بين الكوفة والبصرة ، واختار لها مكانا بين الكوفة والبصرة والأحواز لتكون عاصمة الخلافة ، فجعل القسم الشرقي منها لسكن الجيش الشامي حتى لا يفسده العراقيون ، والقسم الغربي جعل فيه دوائر الدولة .

وكان الحجاج يختار ولاته من ذوي القدرة والكفاءة ، ويراقب أعمالهم ، ويمنع تجاوزاتهم على الناس .

وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلي والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق .

ومن أهم إنجازات الحجاج تعريبه للدواوين ، مما مكّن العرب للمرة الأولى من شغل الوظائف الإدارية في الدولة بعد أن كانت حكراً على الفرس .

ونجح كذلك في إصدار الدراهم العربية وضبط معيارها ، قام بإصلاح حال الزراعة في العراق بحفر الأنهار والقنوات ، وإحياء الأرض الزراعية , واهتم بالفلاحين ، وأقرضهم ، ووفر لهم الحيوانات التي تقوم بمهمة الحرث , وذلك ليعينهم على الاستمرار في الزراعة .

ولعل أجلِّ الأعمال التي قام بها الحجاج نقط المصحف وأمره بتشكيل المصاحف كما ذكرنا ذلك بالتفصيل , ونُسب إليه تجزئه القرآن ، ووضع إشارات تدل على نصف القرآن وثلثه وربعه وخمسه ، ورغّب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة ،

وأخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان ، وترك غيرها من القراءات ، وكتب مصاحف عديدة موحدة وبعث بها إلى الأمصار , منقول

الفتوحات الإسلامية في ولاية الحجاج :

بعد إخماد الفتنة، عاود الحجاج سياسة الفتح ، وأرسل الجيوش المتتابعة ، واختار لها القادة الأكفاء ، مثل قتيبة بن مسلم الباهلي ، الذي ولاه الحجاج خراسان سنة 85هـ ، وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد , فأبلى بلاء حسنا ، ونجح في فتح ما وراء النهر وانتشر الإسلام في هذه المناطق وأصبح كثير من مدنها مراكز هامة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند .

وهنا نذكر أن مساحة فتوح قتيبة بن مسلم الباهلي وحده ، تبلغ أربعين بالمائة من مساحة الاتحاد السوفييتي السابق وثلاثاً وثلاثين بالمئة من مساحة الصين الشعبية في الوقت الحاضر .

وأن سكان المناطق التي فتحها في بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية ضمن الاتحاد السوفييتي والصين لا يزالون مسلمين حتى اليوم ، ويعتزون بالإسلام ديناً , هذا فضلاً عن فتوحات باقي قادة الحجاج ، وباقي ولاة بني أمية .

وبعث الحجاج بابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند ، وكان شابا عمره 17 سنة ، ولكنه كان قائدا عظيما موفور القدرة ، نجح خلال فترة قصيرة لا تزيد عن خمس سنوات 89-95هـ في أن يفتح مدن وادي السند (باكستان حالياً) ، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في فتح قنوج أعظم إمارات الهند التي كانت تمتد بين السند والبنغال فأجابه إلى طلبه وشجعه على المضي ، وكتب إليه أن " سر فأنت أمير ما افتتحته " .

وكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان يقول له: " أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها "

وقال ابن كثير في تاريخه (9|104) عن الجهاد في عهدي بني أمية : " فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها , وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبا ، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه , وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه , فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك ، يقتل ويسبي ويغنم ، حتى وصل إلى تخوم الصين ، وأرسل إلى ملكه يدعوه ، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفا وأموالا كثيرة هدية ، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث أن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفا منه , ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين ، ولم يبق إلا أن يلتقي مع ملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر... ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم " .

ولو عاش الحجاج لأكمل قتيبة فتح الصين كلها، ولأكمل ابن القاسم فتح الهند. فرحمة الله عليك يا أبا محمد . منقول

هل كان الحجاج بن يوسف الثقفي ناصبيا ؟!

لما كانت الكوفة هي مركز التشيع التقليدي ، ومنها خرج المختار الثقفي (والي ابن الزبير) بثورته الشيعية ، ثم ادعى النبوة , جعل بعض الناس يقارنون بين المختار والحجاج ، فيقولون هذا كذاب وهذا مبير، وهذا شيعي وذاك ناصبي ، ويجعلانهما في نفس المستوى ، وفي هذا إجحاف وظلم.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (2|36): " والحجاج بن يوسف خير من

المختار بن أبي عبيد , فإن الحجاج كان مبيرا -كما سماه النبي (صلى الله عليه وسلم) - يسفك الدماء بغير حق ، والمختار كان كذابا يدعى النبوة وإتيان جبريل إليه. وهذا الذنب أعظم من قتل النفوس . فإن هذا كفر ، وإن كان لم يتب منه كان مرتدا ، والفتنة أعظم من القتل " .

وأما مسألة واتهامه بالنصب فيها نظر ، فهو لم يتعرض لبني هاشم طوال فترة حكمه، لا في الحجاز ولا في العراق. بل كان معظماً لهم ، وتزوج امرأة منهم وأعظم صداقها .

وقد دخل عليه أحد قتلة الحسين ، فلم يرحب به الحجاج وبشره بالنار. إذ روى الطبراني (3 | 111) بإسناد صحيح ، وابن معين في التاريخ رواية الدوري (3 | 498) بإسناد حسن أن الحجاج قال يوماً : " من كان له بلاء فليقم فلنعطه على بلائه " فقام رجل (سنان) فقال: "قتلت الحسين" , قال: "وكيف قتلته؟" , قال : " دَسَرْتُه بالرمح دَسْراً، وهَبَرْتُه بالسيف هَبْراً، وما أشركت معي في قتله أحداً " , قال: " أما إنك وإياه لن تجتمعا في مكان واحد " (أي في الجنة). وأخرجه ولم يعطه شيئا .

وقال في مجموع الفتاوى (4|504): " وهذا مما يقوله هؤلاء الجهال أن الحجاج بن يوسف قتل الأشراف وأراد قطع دابرهم ، وهذا من الجهل بأحوال الناس , فإن الحجاج مع كونه مبيرا سفاكا للدماء قتل خلقا كثيرا ، لم يقتل من أشراف بني هاشم أحدا قط , بل سلطانه عبد الملك بن مروان نهاه عن التعرض لبني هاشم - وهم الأشراف - وذكر أنه أتى إلى الحرب لما تعرضوا لهم - يعني لما قتل الحسين - ولا يُعلم في خلافة عبد الملك والحجاج - نائبه على العراق- أنه قتل أحداً من بني هاشم"

وقال في جامع المسائل (4|157): " وكما يروون أن الحجاج بن يوسف قتِلَ أشرافَ بني هاشم، وهذا كذبٌ أيضاً ، فإن الحجاج مع ظلمه وغشمِه صَرَفَه الله عن بني هاشم ، فلم يقتل منهم أحداً ، وبذلك أمرَه خليفته عبد الملك ، وقال : " إياك وبني

هاشم أن تتعرضَ إلى أحدٍ، فإني رأيت آل حرب لما تعرضوا للحسين أصابَهم ما أصابهم "، أو كما قال.

ولم يُقتَل في دولة بني مروان من الأشراف بني هاشم مَن هو معروف، (إلا) زيد بن علي بن الحسين لما صُلِبَ بالكوفة. وقد تزوَّج الحجاج ابنةَ عبد الله بن جعفر وأعظَم صداقَها، فلم يَرَوه كفؤاً لها وسَعَوا في مفارقتِه إيّاها " .

الحجاج وعمير بن ظابئ التميمي

كان عمير بن ظابئ التميمي من أشراف الكوفة ، وهو أول رجل يقتله الحجاج بعد توليه الكوفة ، حيث أنه لما وصل إليها، وصعد المنبر ، قال عمير: " لعن الله بني أمية حيث يستعملون مثل هذا " ، وأراد أن يرميه بالحجارة , وهي عادة لأهل الكوفة من قبل , فلما خطب الحجاج خطبته الشهيرة التي يقول بها : " إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها" ، سقط الحصى من يده وهو لا يشعر من شدة الرعب , ثم أمر الحجاج الجنود الاحتياط بأخذ عطائهم (الراتب السنوي) والتجهز للخروج في جيش المهلب لجهاد الخوارج ، وأنذرهم ثلاثة أيام للخروج إلى المعسكر خارج الكوفة ، لكن أهل الكوفة تقاعسوا عن الجهاد وأرادوا القيام بتمرد ، فتجمعوا في اليوم الثالث وكبروا تكبيراً عالياً في السوق ، فقام إليهم الحجاج وصعد على المنبر وقال: " يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، إني سمعت تكبيرا في الأسواق ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به الترهيب , وقد عصفت عجاجة تحتها قصف , يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء والأيامى ، ألا يربع كل رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويبصر موضع قدمه ؟ فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها " .

فقام إليه عمير بن ضابئ فقال: أنا شيخ كبير وعليل : وهذا ابني هو أشب مني .

فقبل الحجاج منه وقال: هذا خير لنا من أبيه .

فقال عنبسة للحجاج: أتعرف هذا ؟ قال: لا . قال: "هذا أحد قتلة عثمان". فقال الحجاج: "أي عدو الله ! أفلا إلى أمير المؤمنين بعثت بديلاً ؟ إني لأحسب أن في قتلك صلاح المِصرين" .

ثم أمر به فضربت عنقه. فخاف الناس وخرجوا جميعاً للجهاد [1]

هل كان الحجاج كافرا ؟

بدا لنا في موضوع دراستنا لشخصية الحجاج أن نبحث مسألة مهمة تطرق إليها المؤرخون الأولون، وتناولها المحدثون منهم بكثير من البحث والتفصيل ، وهي مسألة إيمان الحجاج أو كفره ، وذلك لما لأثرها على موقف أهل العراق كمحكومين بسلطته ، وعلى من تتبع سيرته وقرأ عنه ممن أعقبهم ، فالمتتبع لسيرة الحجاج بن يوسف يجد الكثير من الروايات التي تحاول أن تقنع القارئ بضعف إيمان الحجاج ، بل كفره ، حتى أصبح من المألوف أن نجد اسم الحجاج في بعض المصادر مقرونا باللعنات والصفات القبيحة ، كما أنه لم يسلم حتى من أهل الشام الذين أحسن إليهم وقربهم إليه ، فكان بعضهم يطعن به ويشتمه وينتقص منه، ولم تقتصر حملة التشهير والطعن به على المؤرخين الأولين بل انتقلت إلى بعض المحدثين الذين كتبوا عن الحجاج اخذين بنظر الاعتبار صحة كل ما نقلته الروايات المناوئة له عن كفره وضعف إيمانه ، ناسخين لنا العديد من الروايات والآراء التي تكفر الحجاج التي نقلها المؤرخون الأولون مستندين إلى بعض الأقوال التي نسبت إليه ،
على أن أهم ما أخذوه على الحجاج، هو القول الذي نسب إليه ، عندما رأى ناسا

---

[1] الكامل لابن الأثير ج 2 / ص 281
تاريخ الطبري ج 3 / ص550

يطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنبره، فقال : " إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية "

وعليه علق قال الجاحظ قائلا : خطب الحجاج بالكوفة ، فذكر الذين يزورون قبر رسول الله « صلى الله عليه و آله » بالمدينة ، فقال: تبا لهم ، إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية . هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك ؟
ألا يعلمون: أن خليفة المرء خير من رسوله ؟.
يقول المبرّد: إن ذلك مما كفّرت به الفقهاء الحجاج.
و أنه إنما قال ذلك و الناس يطوفون بالقبر , و هذه القضية معروفة و مشهورة . [1]

وقد أبرزت الروايات آراء عديدة لبعض العلماء الذين أكدوا كفر الحجاج وعدم إيمانه ، منهم سعيد بن جبير الذي قال : " والله ما خرجت عليه حتى كفر ، ومنهم الشعبي القائل "بأن الحجاج مؤمن بالطاغوت كافر بالله العظيم" ، ويعترف الشعبي بأنه كان ينال هو وجماعته من على مقاربة للحجاج ، وقد قال كلامه هذا بعد وفاة الحجاج بعد أن كان عفى عنه لخروجه مع ابن الأشعث .

وهناك من ذهب أبعد من هؤلاء ، فقرر سلفا أن الحجاج من أهل النار .

ومن التهم التي رمي بها ، أنه كان يتعمد تأخير صلاة الجمعة ويمنع من يحاول أن يؤديها قبله، ويعاقب من يذكره بفوات وقتها ، ولكن ابن عساكر يذكر رواية تنص على قول الحجاج أن صلاة الجمعة لا يمكن تاخيرها [2]

وملخصها أن رجلا استغفل قاضي الحجاج الذي كان متوجها لأداء صلاة الجمعة ، قائلا له : " أما بلغك أن الأمير قد أخر صلاة الجمعة اليوم.. فرجع القاضي إلى بيته ، وفي اليوم التالي ، سأل الحجاج قاضيه عن عدم حضوره صلاة الجمعة ، فأخبره بما حصل ، فأجابه الحجاج : أبى حمير أما علمت أن الجمعة لا تؤخر ؟!!

---

[1] النصائح الكافية للجاحظ / ص81
الكامل في الأدب ج1 / ص222
[2] تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج1 / ص352

ومما يفند هذه التهمة من الروايات ما تعارضها وتؤيد حرصه على أداء الصلاة في وقتها ومعرفة شرائع الإسلام ، فقد جعلها في مقدمة الأمور التي يجب أن يؤكدها مؤدب أولاده ، ولأجل ذلك رفض مؤدبا نصرانيا على الرغم من علمه الغزير وأبدله بمؤدب مسلم ، وقال له : " ألا ترى يا هذا أنا قد دللنا على النصراني ، وقد ذكروا أنه أعلم منك , غير أني كرهت أن أضم إلى ولدي من لا ينبههم للصلاة عند وقتها ، ولا يدلهم على شرائع الاسلام ومعالمه "

وفي هذا دليل على أن الحجاج كان حريصا على تنشئة أبناءه دينيا وعدم استهانته بالصلاة أو أحد شرائع الدين ، فعندما زوج ابنته اختار لها زوجا متدينا ناسكا هو مسرور ابن الخليفة الوليد الأول .

أما عن الكتَّاب المحدثين فقد طغت على آراءهم في المسألة روح التعصب وألبسوها المذهبية المقيتة ، ففاضت مؤلفاتهم بتهم وادعاءات دون أي ذكر لدليل يؤيد ما يذهبون إليه ويدعم افتراءاتهم ، فكانت أبعد ما تكون عن الروح العلمية النقد البناء والانصاف في دراسة الشخصيات الذي لطالما يستهلون بها مقدمات كتبهم ويوصموها عبثا مؤلفاتهم ، فإذا ألقينا نظرة إلى ما قال الدكتور عبد اللطيف شرارة في مقدمة كتابه "الحجاج طاغية العرب" الذي استهل مقدمته ، بأنه على مؤرخي السيرة وكتابها خاصة أن يلتزموا جانب الانصاف كلما عرضوا لشخصيات تاريخيه ، إلا أنه لا يلبث أن يتخلى عن حياده ويظهر انحيازه الجامح في حشو كتابه ، ليطلق العنان لاتهاماته دون نسبتها لأثر يؤكد صحتها ، ومنها أنه أي – الحجاج - كان يكره الإسلام كدين ويكره صاحب الرسالة الإسلامية ويكره أنصار النبي محمد من العرب ، ويكره الهاشميين ويكره كل ذي نعمة، جمالا كانت أو ثروة أو جاها ، وهو لم يؤيد الأمويين عامة والمروانيين خاصة حبا بهم أو إعجابا بمزاياهم وفضائلهم ، وإنما هي كراهيته للروح الدينية الجديدة التي حملته على السير اتجاههم ودفعته دفعا في تيارهم السياسي الفكري .."

ومن الجدير ذكره أن الشيعة لم يكونوا وحدهم مصدر الروايات الموضوعة والمفتعلة عن الحجاج كونهم مبغضيه الأُول ، فقد اجتهد في هذا الأمر خصومه

الآخرين كالخوارج الذين قاومهم وأخمد حركاتهم ، وكذلك الزبيريون ممن قوض ملكهم ، ولا ننسى اتباع ابن الأشعث ، الذين قضى على تمردهم وفرق جمعهم .

وأما العوامل والأسباب التي أدت إلى انتشار تلك الروايات والتسليم بصحتها ، فيرى ولهووزن أن جرأة الحجاج ، وقلة تحرجه في القضاء على ابن الزبير في مكة ، وعدم رضاه باتخاذ أهل الكوفة والبصرة سندا من الدين لتبرير ما يقومون به من فتنة ، كان من الأسباب التي أدت إلى إثبات قلة إيمانه عند العامة في الحجاز والعراق ، ولتكثر معه الروايات المفتعلة على الحجاج التي حاولت أن تنال من إيمانه خاصة وإلا فلم يكن الحجاج كافرا بالله .

ولعل تقبل المجتمع للتهم الموضوعة والفظائع التي رمي بها الحجاج من قبل أعداءه بدون تحفظ وتصديقها على اعتبار أنها حقائق واقعية طالما ذكرها العلماء ، أو بعض الرواة الذين هم (ثقات) في رأي الناس، كان عاملا أساسيا زاد أيضا من انتشار هذه الروايات المفتعلة .

ومن ذلك ما ذكره البيهقي من أن رجلا من الخوارج صعد على منبر أحد المساجد ، فلعن الحجاج وذكر الكثير من المساوئ التي قام بها ، فتابعه الناس في لعنه ولكنه لم يلبث ان ذكرهم بما قام به الحجاج من محاسن وأنه كان غيورا على المسلمين عفيفا عن اموالهم وطلب منهم أن يترحموا عليه ويدعوا له بالمغفرة ، ففعلوا وتعالت اصواتهم بالدعاء والاستغفار له .

وعلى الرغم من الاتهامات الكثيرة التي ذكرتها بعض الروايات عن ضعف إيمان الحجاج ، ورددها الكثير من الذين كتبوا عنه ، فقد تفطن بعض المؤرخين أن الوضع والزيادة والتشويه لبعض أفعال الحجاج وأقواله قد أخذ طريقه إلى ما كتب وقيل عنه ، ومنهم الحافظ والمؤرخ ابن كثير ، فقد قال معلقا على هذا الموضوع" : وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر ، فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها .. ، وإلا فهو باق في عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع زيادة عنه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جدا لوجوه، وربما حرَّفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات "

ومن جهة أخرى وعلى أن الأمور بنقائضها تعرف ، فهناك على نقيض مما ذكر عن الحجاج من ضعف الإيمان والكفر ، فيض من المرويات التي تظهر الحجاج بمظهر التدين والورع ، فقد كان يتدين بترك المسكر وكان يكثر من تلاوة القرآن ويتجنب المحارم ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج ، ورغم تسرعه في سفك الدماء ، إلا أنه كان حريصا على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن ، فكان يعطي على القران كثيرا .

وقد اهتم الحجاج بترسيخ التربية الدينية ليس فقط على اهل بيته فحسب ، بل كان يستغل الفرص والمناسبات ليعبر للناس عن أهمية التقوى والدين في الحياة العامة ، فقد كان ينتهز فرصة انتهاء شهر رمضان ليذكر الناس بوجوب استمرار الطاعة لله في الأشهر التالية وعدم الاكتفاء بها في هذا الشهر فقط .

وعندما كانت تنقطع مراسلاته أو تتأخر مع الجيوش الفاتحة في الشرق ، ويشعر أن المسلمين اصبحوا هناك في خطر كان يأمر الناس بإقامه الصلوات في المساجد وان يكسروا من الدعاء لسلامه المسلمين وكان يوصي قواده ان يأمروا جنودهم بتلاوة القران لأنه امنع الحصون ولم يكن يكتفي بالقول والخطب والوصايا انما كان معلما عمليا للأمة .

ويستفاد مما ذكره مؤلف غرر السير أن الحجاج كان حريصا على تطبيق شعائر الصلاة بصورة مضبوطة ، فقد خطب على المنبر مبينا ذلك، ثم رأى أن الطريقة العملية هي أحسن الوسائل، فطلب إناء ابريقا ، ونزل من على المنبر وتوضأ أمام المصلين شارحا لهم ومذكرا إياهم بالطريقة الصحيحة السليمة التي يتطلبها الشرع عند القيام بعملية الوضوء .

وعليه فإن هذه الأخلاق الفاضلة ، وهذه الروح الدينية العظيمة لا تسمح لذي عقل بأي حال من الأحوال أن يتهم الحجاج بالكفر والإلحاد .

فلقد كانت الروح الإسلامية قوية لدى الحجاج، وقد وصفه لامانس بأنه مسلم غيور، كما وصفه مستشرق آخر بالورع والتقوى ، يضاف إلى هذا أن هناك الكثير من خطب الحجاج التي تطغى عليها صفة الوعظ والإرشاد وقد أظهر فيها احتقارا شديدا للدنيا ، وأملا عظيما يطمع فيه بعد الممات .

وأخيرا فإن ما ذكره الحجاج في وصيته التي ذكرها بعض المؤرخين تدحض كل ادعاء بكفر أو إلحاد عند الحجاج ، فقد ذكر في مقدمة ما أوصى به أنه يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .[1]

[1] راجع : النصائح الكافية ص81 عن الجاحظ، , والكامل في الأدب ج1 ص222 ط النهضة بمصر،
وشرح النهج للمعتزلي ج15 ص242 , والبداية والنهاية ج9 ص131 , وسنن أبي داود ج4 ص209
والعقد الفريد ج5 ص51 , والاشتقاق ص188 , ووفيات الأعيان ج2 ص7 , والإلمام ج4 ص313 - 314 وفيه أن ذلك هو سبب خروجهم مع ابن الأشعث ، وراجع تهذيب تاريخ دمشق ج4 ص72 وبهج الصباغة ج5 ص291 و319 و338 عن العقد الفريد، وعن كتاب افتراق بني هاشم وعبد شمس للجاحظ.

الخاتمة :

عرضنا فيما فات الوقائع التي حدثت بين الحجاج بن يوسف الثقفي وبين عبدالله بن الزبير ولزم علينا ذلك التعرض لقضية أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ثم انتقلنا لفتنة ابن الأشعث وما دار بينه وبين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبدالملك بن مروان وفي آخر الفصول أتينا على إضاءة تشرح الحجاج كشخص له إصلاحاته وسياسته وإدارته وله عائلته وأهله ورد بعض الشبه عنه بعيدا عن تلك الصورة التي ترسمه كأمير والغ في الدماء يشربها كما يشرب الماء

- تحدثنا عن سبب مخالفة ابن الزبير ليزيد بن معاوية رغم إجماع المسلمين عليه فقد نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء ج3 ص 292 أن عبدالله بن الزبير والحسين بن علي هما اللذان لم يبايعا يزيد بن معاوية فقال ما نصه :
  ((فلما مات معاوية تسلم الخلافة يزيد , وبايعه أكثر الناس ولم يبايع له ابن الزير ولا الحسين وأَنِفُوا من ذلك)) [1]
  ونقل ذلك أيضا ابن حزم في رسائله فقال : ((وبويع يزيد بن معاوية إذ مات أبوه , يكنى أبا خالد , وامتنع عن بيعته الحسين بن علي بن أبي طالب وعبدالله بن الزبير بن العوام)) [2]

- تحدثنا عن تحالفات عبدالله بن الزبير ضد الأمويين وما جرى بينه وبين المختار الثقفي والذي كان أحد أمرائه

- تحدثنا أيضا عن النزاع بين الحجاج وابن الزبير وموقف الصحابة كابن عمر وابن عباس من عبدالله بن الزبير وأسباب عدم قدرة ابن الزبير عن مواجهة

[1] الذهبي في سير أعلام النبلاء ج3 / ص 292
[2] رسائل ابن حزم الأندلسي ج2 / 140

عبدالملك بن مروان ومجاراته سياسيا وهو ما صرح به ابن عباس كما رواه البخاري في صحيحه

- تحدثنا أيضا عن عدم صحة قصف الحجاج للكعبة وتم تفنيد الروايات التي تحدثت عن ذلك

- تحدثنا عن أسباب نفور ابن الأشعث من الحجاج بن يوسف الثقفي وما جر ذلك بينهما من نزاع انتهى لنقض ابن الاشعث مع كافة جيشه لبيعة ولي الأمر الشرعي

- تحدثنا عن النفور التاريخي بين عرب العراق والشام وما له من امتداد تاريخي صرح به قادة عرب العراق وأنفوا من سيطرة الشاميين عليهم

- تحدثنا عن القراء الذين خرجوا على ولي الأمر ونقضوا بيعته وسفكوا الدماء وما كان منهم وفندنا روايات مقتل سعيد بن جبير والتي لا تصح كلها وأنها موضوعة

- وأخيرا ختمنا بالتعريف بهذه الشخصية التاريخية الفذة وبينا ما كان لها من مآثر ومحاسن وإيجابيات وأعمال يحق للعربي المسلم الافتخار بها ورفع رأسه عاليا بما أنجزته في مشرق الدولة العربية الأموية

مَن سَدِّ مُطَّلَعَ النِفاقِ عَلَيهِمِ
أَم مَن يَصولُ كَصَولَةِ الحَجّاجِ

أَم مَن يَغارُ عَلى النِساءِ حَفيظَةً
إِذ لا يَثِقنَ بِغَيرَةِ الأَزواجِ

إِنَّ اِبنَ يوسُفَ فَاِعلَموا وَتَيَقَّنوا
ماضي البَصيرَةِ واضِحُ المِنهاجِ

ماضٍ عَلى الغَمَراتِ يُمضي هَمَّهُ
وَاللَيلُ مُختَلِفُ الطَرائِقِ داجي

مَنَعَ الرُشا وَأَراكُمُ سُبُلَ الهُدى
وَاللِصَّ نَكَّلَهُ عَنِ الإِدلاجِ

فَاِستَوسِقوا وَتَبَيَّنوا سُبُلَ الهُدى
وَدَعوا النَجِيِّ فَلَيسَ حينَ تُناجي

يا رُبَّ ناكِثِ بَيعَتَينِ تَرَكتَهُ
وَخِضابُ لِحيَتِهِ دَمُ الأَوداجِ

إِنَّ العَدُوَّ إِذا رَمَوكَ رَمَيتَهُم
بِذُرى عَمايَةَ أَو بِهَضبِ سُواجِ

وَإِذا رَأَيتَ مُنافِقينَ تَخَيَّروا
سُبُلَ الضَجاجِ أَقَمتَ كُلَّ ضَجاجِ

داوَيتَهُم وَشَفَيتَهُم مِن فِتنَةٍ
غَبراءَ ذاتِ دَواخِنٍ وَأُجاجِ

إِنّي لِمُرتَقِبٌ لِما خَوَّفتَني
وَلَفَضلِ سَيبِكَ يا اِبنَ يوسُفَ راجي

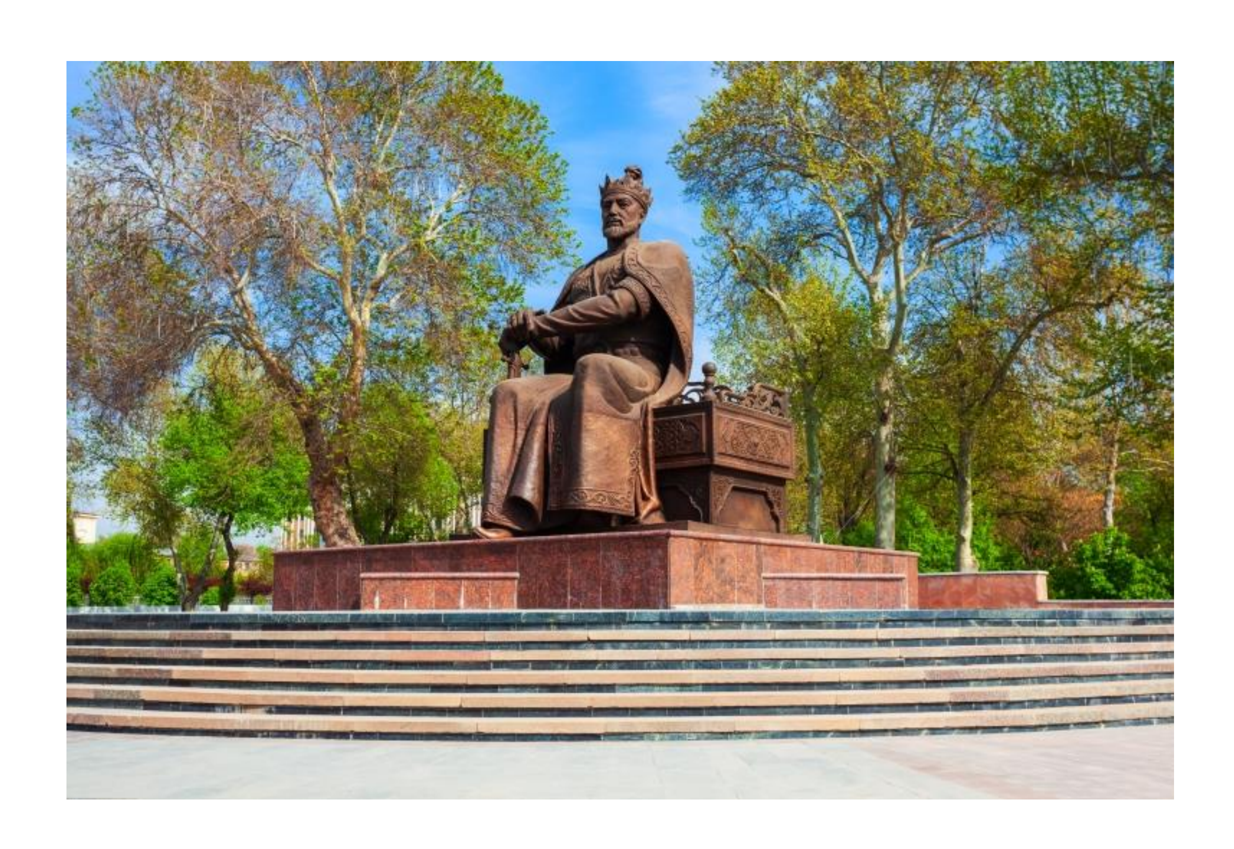
وَلَقَد كَسَرتَ سِنانَ كُلِّ مُنافِقٍ
وَلَقَد مَنَعتَ حَقائِبَ الحُجّاجِ

الملاحق

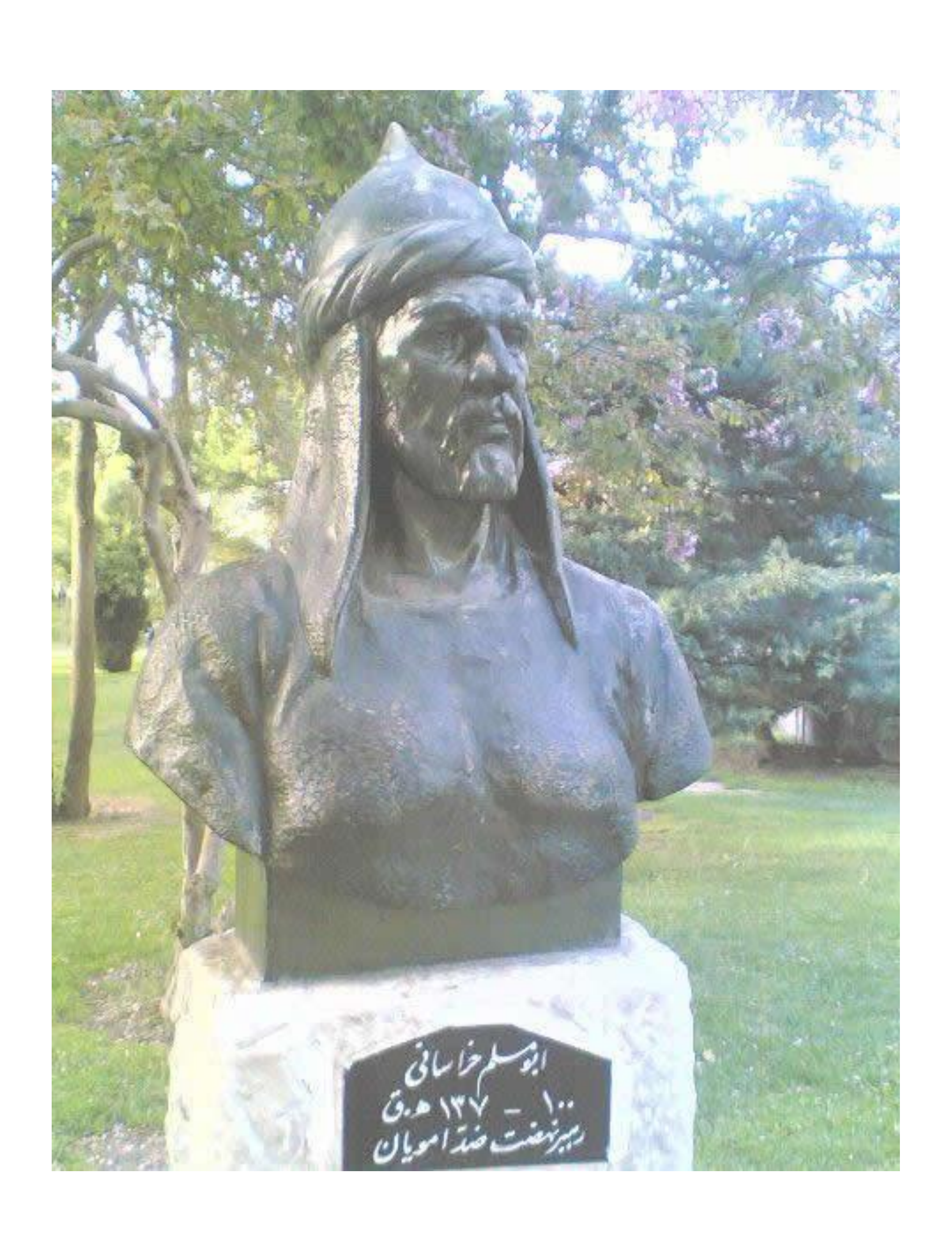
ملحق 1 صورة تمثال جنكيز خان في منغوليا



ملحق رقم 2 تمثال تيمور لنك في طشقند



ملحق رقم 3 تمثال أبو مسلم الخراساني في إيران



المصادر

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر - الماوردي
- جمهرة رسائل العرب – أحمد زكي صفوت
- الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني
- تاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الرسل والملوك المعروف بـ " تاريخ الطبري " - لمحمد بن جرير الطبري
- البداية والنهاية – لابن كثير
- تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية – يوليوس وولهوزن
- سير أعلام النبلاء – شمس الدين الذهبي
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام " تاريخ الذهبي " – شمس الدين الذهبي
- قيد الشريد في أخبار يزيد - ابن طولون الصالحي
- أنساب الأشراف – البلاذري
- طبقات ابن سعد
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار – الأزرقي
- تاريخ الشام – الواقدي
- كتاب الأغاني – المدائني
- تاريخ خليفة خياط - خليفة بن خياط الشيباني العصفري البصري
- الكامل في التاريخ – ابن الأثير
- الأوائل - الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري

- الأخبار الطوال – أبو حنيفة الدينوري
- الفتوح – ابن أعثم الكوفي
- العقد الفريد – ابن عبدربه
- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر – عبدالقادر بن أحمد الدومي الدمشقي
- مروج الذهب ومعادن الجوهر – للمسعودي
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال – شمس الدين الذهبي
- النصائح الكافية – الجاحظ
- تاريخ مدينة دمشق – ابن عساكر
- الكامل في الأدب – ابن المبرد
- رسائل ابن حزم – ابن حزم الأندلسي
- الدولة الأموية في الشام – أمين زكريا النصولي
- العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي – د . عبدالواحد ذنون طه
- الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه – د . محمود زيادة
- أبراج الزجاج في سيرة الحجاج – عبدالرحمن بن سعيد بن علي بن وهف
- تحليل تاريخي لموقف الدولة الأموية من خروج ابن الأشعث عليه – محمد بن ناصر بن أحمد المسلم

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث